كان يا ما كان

في مصر الآن

دكتور: كمال الدين عبدالله سليمان

كان يا ما كان
المؤلف : د. كمال الدين عبدالله سليمان

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يونيو 2019
رقم الإيداع : 2019/10517
الترقيم الدولي : 978-977-769-259-5

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم
- من صبري أبوعلم - عمارة أنور
وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247

مقدمة:

بدأت كتابة هذه القصص القصيرة جداً بعدما جاوزت الستين، وقلت أعبائي والتزاماتي، ونشرت بعضاً منها على أصدقائي في مواقع التواصل الاجتماعي، وكان لها صدى طيب.

وهذه القصص مزيج من خبرات قديمة، ومواقف كدت أن أنساها، ولحظات تأمل وتفكر، كما أن بها وصف لشخصيات صادفتها أو تخيلتها، وفي بعضها بلورة لرأي أو نظرة. وقد يجد القارئ والقارئة بعضا من هذه القصص متماثلة مع موقف مر به أو رأى أبداه، أو شيء جال بخاطره في وقت ما. وقد يشعر القارئ أيضاً أنه قد قابل بعض الشخصيات الموصوفة في هذا الكتاب، أو أن بعضها يتطابق مع شخصيته أو شخصية يعرفها. وتعمدت ألا تزيد الأقصوصة عن صفحة أو صفحتين، فأضفى هذا السَّمتُ القصير على القصص إثارةً وتشويقا.

دكتور: كمال الدين عبدالله سليمان

تقديم

عزيزي الدكتور كمال:

عندما يبدع المؤلف، سواء في قصة قصيرة أو رواية طويلة، فليس المطلوب منه أن يقدم مذكرة تفسيرية لما كتب. فكل قارئ قد يفهم ما كُتب بشكل مختلف، وأحياناً قد يفهم شيئاً لم يقصده المؤلف، وهذا هو جمال الإبداع. فأنت تكتب قصصا تصفها بأنها قصيرة جداً، وتبدو وكأنها ذكريات أو يوميات قد تكون مرت بالكثيرين، ولكنك لأنك مبدع التقطها وصورتها في هذا القالب الذي يناسبها من وجهة نظرك. أيها الطبيب الأديب أنا أجد في قصصك القصير جداً متعة كبيرة جداً، ولك في كل من الدكتور مصطفى محمود والدكتور يوسف إدريس أسوة حسنة.

الأستاذ الدكتور: ممدوح الجوهري

أستاذ الأنف والأذن والحنجرة

رائعة كالمعتاد... أبحث عن قصصك كما كنت أبحث عن أهرام الجمعة في الماضي.

الدكتورة: أماني أبو العزم

«كان ياما كان... في مصر الآن» الكتاب الأول للطبيب كمال الدين عبدالله سليمان. والدكتور كمال أخي الأكبر وبالطبع أعرفه عن قرب. فمن الناحية الإنسانية فهو مثال للأدب والخلق الرفيع والرجولة والشهامة. ومن الناحية المهنية فهو طبيب استشاري ناجح وماهر في تخصص جراحة الأنف والأذن والحنجرة. ومن الناحية الأدبية فقد ظهر لي أنه كاتب متمكن، ذو حصيلة لغوية ممتازة وأسلوب سهل ورشيق يصل بالقارئ إلى ما يريد قوله، بوضوح وسلاسة وبأقل عدد من الكلمات. وتلك مهارة وموهبة قلما تواجدتا معاً في شخص واحد.

أتمنى لأخي العزيز كل نجاح وتوفيق، وبانتظار الإصدار الثاني من إبداعاته. وكلي يقين من إثرائها المكتبة العربية بمزيد من الإبداع والفكر والفن والثقافة والأدب.

د. علاء الدين عبدالله سليمان
استشاري امراض الصدر والعناية المركزة
بالولايات المتحدة الامريكية

ـ 1 ـ

بلغ أيمن الثالثة عشر عاما من عمره، ولاحظ أشياء غريبة ومتلاحقة تحدث في جسمه، لم يجد لها تفسيرا، فقد ازداد طوله بسرعة، وخَشُنَ صوته، وفى الآونة الأخيرة ظهرت بعض الشعيرات على شفته العليا وعلى أجزاء أخرى من جسده. وأثناء الفسحة بالمدرسة، لاحظ أيمن بعض أقرانه وقد انتحوا جانبا بالفناء، منبهرين بمشاهدة فيلم على تليفون أحدهم، وكان لممثلة شهيرة وهي ترتدى لباس البحر وتحتضن ممثلا آخرا مقبلة إياه، واقترب منهم، فما كان من كبيرهم إلا أن نهره بتحد قائلا: العب بعيد يلا، إنت لسه صغير، ولكن أيمن اشرأب برأسه عاليا، وأخرج كتفيه للخارج واضعا كفيه على خصره، وأخذ شهيقاً عميقاً، فبرز صدره للأمام، وبدا جسمه كبيرا، ثم خاطبهم بصوت أجش: صغير إيه شوفوا الشعر، وشمر قميصه لأعلى، مظهرا إبطيه، حينئذ اقتنع أقران أيمن بدليل بلوغه وشَرَّكوه في المشاهدة، فأعجبته اللقطات المثيرة للممثلة ، التي تفاعل معها أيمن بإحساس غريب ولكنه استعذب ذلك الإحساس.

لدى عوده أيمن للمنزل وجد جارته سلوى وأمها جالستين بالصالة،

وكانت أمه تحتفى بزيارتها ببعض الشربات، فسلوى ستزف على محروس العجلاتى بعد يومين، وطلبت أم أيمن من ابنها أن يحضر لهم بعض الليمون من عياد الخضري، فاشتراه بسرعة وأوى لغرفته. اشّتَمَ أيمن رائحة احتراق السكر، فصاح مسرورا بصوت عال: إنتى هتعملى عسلية يا ماما؟ فردت أمه منهية تساؤله بحدة: ملكش دعوة يا واد، خليك إنت في اوضتك، وكان أيمن قد سمع أن النساء تستخدمن السكر والليمون في عمل الحلاوة، ولكنه لم يفهم ما المقصود من ذلك.

أوت النسوة الثلاث لغرفة متطرفة، وأغلقن بابها بالمزلاج، وكن قد استعرن الأباجورة والمروحة من غرفة أيمن، وسمع أيمن صوت إغلاق الشيش، فلم يكترث لذلك كثيرا، ولكنه بعد قليل، سمع سلوى وهي تصرخ أي أي، فهب مسرعا من غرفته لينظر بشغف من ثقب الباب، فرأى سلوى وقد خلعت خمارها وكل ثيابها، فأثاره ما رأى، لاسيما وأنه رأى سلوى شديدة بياض البشرة، وكانت ساقاها مكتنزتين، ونهداها منفجرين للخارج، حينئذ أحس الطفل ذو الثلاثة عشر عاما بنفس الإحساس الغريب الذى أحسه صباحا بفناء المدرسة، وازداد ذلك الإحساس مع استمرار ما يراه، فكانت أم سلوى تمسك بشيء لدن، خمن أنها الحلاوة التي سمع عنها، وتلصقها بأعلى فخذ ابنتها ثم تمطها حتى ركبتها وتنزعها بسرعة، فتتبع سلوى ذلك بصرخة أخرى، فتباشرها أمها قائلة: جرى إيه يا بت دا احنا لسه في الأول، وكانت أم أيمن تمسك بقطعة أخرى من الحلاوة وتبصق فيها وتمطها عدة مرات، وتكورها تارة أخرى

ثم تناولها لأم سلوى. لم يكترث أيمن بتفاصيل ما يحدث، ولا بعلة ما تفعل تلك النسوة، قدر اهتمامه بتفحص تفاصيل جسد سلوى، وامتداد العمل لأماكن معينة في جسدها، وحتى لا يفوته شيء فقد اتسعت عيناه لأقصى اتساع، وما انفك الطفل يستمتع بذلك الإحساس العذب والغريب الذي ازداد مع استمراره في التفحص.

أحست أم أيمن بشيء ما يحدث خارج الباب، فصاحت: إنت لسه صاحي يا أيمن؟ لم يجب أيمن التساؤل وعاد لغرفته مسرعا، حيث كان هناك شيء آخر استرعى انتباهه، فهو قد سمع ابنتي الجيران نسمة وبسمة في شقتهما المجاورة والمشتركة مع شقتهم في المنور، وكانتا زميلتين له في المدرسة وفى نفس سنه، سمعهما تتحدثان بصوت هامس، فأغلق أيمن الشيش وتلصص من بين شرائحه الخشبية، فرأى بسمه ترفع جلبابها لأعلى قائلة لأختها شوفي أنا بقي عندي إيه، وتبدى ثدييها، اللذين كانا في حجم ثمرتي ليمون صغيرتين. ومع استمراره في بحلقته راوده مرة أخرى ذلك الإحساس الذي أحبه.

وعندما أوى أيمن لفراشه، رأى في منامه تلك الممثلة الشهيرة وهي مرتدية لباس البحر، واستمتع برؤية نفسه وهو يحتضنها ويقبلها.

ـ 2 ـ

لم يدر بخلد الدكتور عبد المقصود ما كان ينتظره عندما سافر للعمل في بلاد الضباب. كان أعزبا، واستطاع مقاومة الفتنة لفتره، حتى وقع في براثن سامنثا، فهي ممرضة زميلة له في مستشفى كينجز كوليج بلندن. وكانت معروفة بغوايتها للأطباء الأجانب ثم ابتزازهم ماديا، وعلى الرغم من درايته بما هو معروف عنها إلا أنها قادته لعلاقه آثمة معها، ومع تدينه لم يستطع مقاومة جمالها ورشاقتها، ورقة كلامها، وعذوبه صوتها، وكان يأسره بياض بشرتها وزرقة عينيها، وكانت عندما تسدل شعرها الناعم الأصفر والطويل بعد يوم العمل تبدو أكثر جمالا وإثاره، فهو يغطى كل مستدير في جسدها، بدءا من رقبتها وثدييها حتى خصرها وردفيها، وتصبح أكثر إثاره عندما يلملم عبد المقصود شعرها برقه إلى الجانب منها، فيكشف كل مستور، وكانت رائحتها خلابة وتثيره، تختلف كل الاختلاف عما اعتاد أن يشتمه من رائحة لدى اقترابه من زميلاته الطبيبات والممرضات في مستشفى

صدر أسيوط.

رفض الدكتور عبد المقصود ابتزازها، فقد تغلب عقله الصعيدي، وقرر التصعيد، فقررت نقابة الأطباء بلندن شطبه بتهمة التحرش، وعاد لأسيوط. ولكن طيف سامنثا لايزال يشغل تفكيره.

ـ 3 ـ

قاوم نجيب نفسه الأمارة بالسوء، وحافظ على ما اعتاد من التزام لدى عودته لمصر. فهو وبعد سنوات عدة من الغربة قد عاد لوطنه الأم، واستمر في اتباع ما اعتاد عليه في فرنسا من آداب واحترام لقواعد المرور وأخلاق رفيعة مغلفة بذوق رشيق عند تفاعله مع الآخرين، وحاول أن يقوم ما يراه من اعوجاج وأخطاء في سلوك أصدقائه ومعارفه، فأوضح لهم أهمية الحديث بصوت خفيض، ووجوب المحافظة على النظافة، حتى أنه تعمد إظهار احتفاظه بعود الثقاب المستعمل بعد إشعال سيجارته وعدم إلقائه بالشارع ليقلده من يعرفونه. ولكن ليس كل ما يبتغيه المرء يناله. فعندما صادفته، أثناء قيادته سيارته، امرأة تسير في الطريق، والرصيف بجوارها مرصوف وخال على غير العادة نصحها من خلال نافذة السيارة باستخدام الرصيف، وفوجئ نجيب بنمرة شرسة تزجره بصوت عال أجش، وبعصبية شديدة، وكأنها لتوها قد فرغت من حوار حضاري مع حماتها استخدمتا فيه الأيدي والألسنة فتصرخ وتقول، ما لاكش فيه، ثم تقحم السيدة الفاضلة أم نجيب في جملة مفيدة، ارتبك

لها نجيب وابتلع لسانه وأسرع برفع زجاج نافذة السيارة، وفر بالسيارة بعيدا. وبعيد ثوان قليلة احمرت إشارة المرور أمامه، فأوقف السيارة، ولاحظ أن كل السيارات قد تخطته ولم تتوقف، والسائقون ينظرون إليه بتعجب وهو متوقف وحده، وبعضهم يصرخ فيه وبصوت عال وممدود ويعيد ذكر والدته بصيغ أخرى ومتنوعة، فخجل لذلك كثيرا وفكر في مواصلة القيادة على الرغم من اللون الأحمر الواضح أعلاه، لولا أن أحد السائقين قد أبطأ سيارته بجواره فارتجع نجيب عن مخالفة إشارة المرور وانتظر، إلا أن ذلك السائق صرخ في نجيب، ما تعدى يا حمار ولم ينس بالطبع ذكر والدة نجيب مع ضحكة عالية، ثم استمر ذلك السائق في القيادة ضاربا عرض الحائط بكل الألوان وخاصة الأحمر منها.

اهتز نجيب لذلك اهتزازا شديدا، واضطرب اضطرابا بالغا، واعتصره صراع خفي بين التزامه بما تعلمه من صحيح الأخلاق في فرنسا وما يعرفه من غوغائية التعايش مع الخطأ في مصر، فقرر استعادة مصريته، وأصبح يتخطى الإشارة الحمراء، وأصبح لا يلتزم بالحارة المرورية أثناء القيادة، وأصبح يقود عكس الاتجاه، وأصبح يستعمل آلة التنبيه بلا داع، وأصبح يلقي القمامة في الشارع، فوجد في المخالفة أيما لذة، وارتاح لذلك ضميره، وهدأت نفسه المتوترة. وعندما صادف نجيب أحد السائقين ملتزما بالتوقف في إشارة، صرخ فيه مستمتعا وهو يتخطاه وبصوت عال وممدود «ما تعدي يا حمار»..

ـ 4 ـ

استلقى يونس على ظهره ووضع كفيه أسفل رأسه بعد ثنى ذراعيه للخلف، ورفع ساقه اليمنى لأعلى وهي تترنح ثم ألقاها فوق اليسرى، وخاطب صديقه المستلقي بجانبه، وكان حديثه غير واضح المخارج، فكان كمن التصق لسانه بجانب حلقه وقال: عارف يا واد يا مرزوق أنا حاسس بإيه؟ فلم يرد مرزوق بأية أجابه، حيث كان هو الآخر ينظر للسماء ولا يستطيع الكلام. واستمر يونس قائلا: حاسس إن أنا عصفورة، هنا ضحك مرزوق وانفجر قائلا: عصفورة؟ ورايح فين يا خفيف؟ فقال يونس: شايف السحابة اللي هناك دي، أنا وصلت لها، ودخلت فيها. هنا أغمض مرزوق عينيه وغط في نومه وبدأ شخيره. فقام يونس وحاول السير متمايلا، ولا يدري إلى أين يذهب. وعلى الرغم من نوم مرزوق إلا أن يونس استمر في مخاطبته قائلا: السحابة دلوقت بتمطر عصافير، وأنا رجعت عصفورة تاني ونازل أهه، عندها ارتطم يونس بعامود الإنارة..

ـ 5 ـ

في إحدى أمسيات أغسطس الحارة، وفي ميس الضباط بالوحدة العسكرية التي أُلحق بها كضابط طبيب احتياط، سأله قائد الوحدة: مال شعرك طويل كده يا طبيب؟ فرد عليه بهدوء وهو يمرر أصابعه خلال شعره ويمتد بيده لتمسح قطرات العرق فوق جبهته: كده أنا شكل ليوناردو دي كابريو. تعجب القائد لهذا الرد واستمر في تناول العشاء، ودون أن ينظر إلى الدكتور ناصر الشاذلي، حيث كان القائد مشغولا بملعقة الشوربة لتحمل أكثر ما تستطيع من حبات المكرونة، قال وهو ينظر في الطبق: بكره شعرك ودقنك دول يكونوا محلوقين كويس. فرد ناصر وهو يتحسس ذقنه: أيوه بس أنا خالي وأختي دايما بيعجبهم شكلي كده. وعندها توقف القائد عن تناول الطعام والقى بالملعقة في الطبق، فأحدث ارتطامها ضجيجا كبيرا قطع السكون المخيم على الميس، حيث كان الجميعُ صامتين لتواجد القائد، وكانوا أيضا ينصتون لحواره مع الضابط الجديد. واستدار القائد ثم نظر لذلك الشخص الغريب وقال: مين بقي خالك وأختك دول؟ وفي هدوئه المستمر وضع ناصر ساقه اليمنى

فوق اليسرى، وأشعل سيجارة وقال: خالي عمرو موسى وأختي منى الشاذلي. عندها استشاط القائد غضبا واتسعت عيناه، وارتفع حاجباه، وكتم أنفاسه ثم انفجر قائلا: أولا نزل رجلك واطفي السيجارة وإنت بتكلمني، ثانيا عمرو موسى مين ومنى الشاذلي مين اللي يبقوا قرايبك؟ ونظر القائد للجندي المشدود القامة بجواره وقال: خليهم يا ابني يعلوا التكييف، دي باينها ليلة. أما ناصر وبدون اهتزاز فأجاب قائده وكأنه أتى بهذه الإجابة سابقا واعتاد تكرارها: أيوه يا فندم دول قرايبي، وحتى أنا كنت مع خالي عمرو موسى السنة إلي فاتت في سويسرا. فيتعجب القائد: يا سلام وشوفت أيه في سويسرا؟ فيرد ناصر بطلاقة: جنيف ولوزان يا فندم.

يتوقف القائد عن تناول الطعام ويبحلق في الدكتور ناصر ويقول: انت منين يا دكتور؟ ويرد ناصر: من سيدي سالم يا فندم، ويكمل ناصر: بس أنا زرت لندن وباريس، وعشت شوية في أمريكا وحتى قابلت أحمد زويل هناك. وهنا انتفض القائد قائما، فوقف كل من في الميس، وبإشارة بيديه سمح لهم القائد بالجلوس واصطحب الدكتور ناصر إلى أريكة مُزَينَةٍ في أحد أركان الميس وقريبة من جهاز التكييف، كما اصطحب أيضا قائد السرية الطبية وهو القائد المباشر للدكتور ناصر، وأشعل معهما السجائر وطلب أقداح القهوة. ثم سأل الدكتور ناصر: ومين تاني قريبك يا طبيب؟ فقال ناصر في سلاسة وبلا تردد: سعد باشا زغلول كان جدي لوالدتي، والدكتور محمد عبد المجيد الزيات ابن عمتي، وأسامه أنور

عكاشة جوز أختي وزي ما سيادتك عارف كلهم من كفر الشيخ.

ومع تبدد ذهول القائد وتحول حواره مع الدكتور ناصر إلى نوع من الفكاهة، ترأف بحال ناصر، وتبادل نظرات الشفقة مع قائد السرية الطبية وقال بصوت هادئ وعطوف: وبتعمل أيه بقى في سيدي سالم يا طبيب؟ فيقول ناصر: أنا والدي المهندس سالم الشاذلي، رئيس مجلس مدينة سيدي سالم، خصص لي حتة أرض وعملنا عليها مستشفى كبيرة وبعمل فيها عمليات قلب مفتوح، وحتى الدكتور مجدي يعقوب بيحول لي الحالات الصعبة. وبصوت أجش تغلبه الثقة مع هزة لرأسه يقول ناصر من طرف فمه: أنا ممكن أعمل عمليات كبيرة هنا في السرية الطبية. ومرة أخرى يتبادل قائد الوحدة وقائد السرية الطبية نظرات الشفقة مع بعض الابتسامات، ويبادر قائد السرية الطبية ناصرا بالسؤال: انت متجوز يا دكتور؟ فيرد ناصر وهو يتحسس شعره ويتعدل سترته: عشان أنا شكل ليوناردو دي كابريو بنات كتير حبوني بس أنا اخترت أحلى واحده وتجوزتها ويخرج من محفظته صورة لسعاد حسني ويظهرها لمحدِثَيْه. عندها أنهي القائد حواره، وتوجه لمكان مبيته وأمر قائد السرية الطبية بعمل تقرير عن الطبيب ناصر الشاذلي ليرسله إلى القيادة العامة..

6

أثناء لجنة امتحان الشفوي للدكتوراه بكلية عريقة، بدأ رئيس القسم وكرشه يجثم فوق صدره بسؤال أحد الطلبة وهو ابن أحد الأساتذة بالكلية: خمسه فى سته بكام يا ميدو

يرد ميدو ببلاهة: خمسه في سته بتلاتين يوم يا أونكل.

ينفجر الأستاذ ضاحكا ويكاد كرشه أن يقع على الأرض لشده اهتزازه: برافو يا ميدو، مبروك النجاح، مع السلامة يا حبيبي، سلم على بابا.

يدخل الطالب التالي، وهو من عامة الشعب، يسأله الأستاذ: قطار منوف يسير بسرعة مئة كيلو في الساعة، ويتوقف في خمس محطات، كل وقفة لمدة دقيقتين، فإذا كانت المسافة حتى القاهرة مئة وخمسين كيلو، اذكر الاسم الثلاثي للسائق.

يرتبك الطالب لبرهة، ولكنه يتملص برد سريع، سامح زكي عبد الباري يا فندم.

ينفجر الأستاذ ضاحكا ويكاد كرشه أن يقع على الأرض لشده اهتزازه: لا يا حبيبي، اسمه محمد محمود عبد السلام، ساقط، مع السلامة يا خفيف، أشوفك الامتحان الجاي..

- 7 -

أحمد قاعد لوحده، شيطان يوزه، يحضر الكمبيوتر، يستخرج وصفه كيكة بالشيكولاتة، وفى المطبخ يخلط البيض مع اللبن والدقيق، ثم يضيف الزبد والسكر، ويضع الكيكة في الفرن، بعد نضجها يغطيها بالشكولاتة والكريمة.

في غضون دقائق قليلة، أحمد يلتهم الكيكة كلها، ويستلقى على الأريكة أمام التليفزيون مربتا على كرشه بحنان وافتخار..

ـ 8 ـ

لم يكن متولي أبو أحمد بصحة جيدة خلال شهور مضت، فأصبح صدره يضيق عن الأنفاس، وبمشقة يحاول متولي إدخال ما يستطيعُ من الهواء لصدره فلا يدخُله سوى كميةٍ صغيرة، ما كانت تكفي جسده رغم نحولِه وهُزالِه. وكان يرفع رأسه للأعلى ويفتح ثقبي منخاره على اتساعهما، ويبسط مَنكبيه على عرضهما، ويفتح فمه قدر استطاعته علّ ذلكَ كلَه يساعده في إدخال مزيد من الهواء لصدره، ولكن أنَّى لذلك المسكين مزيداً من الهواء، فقد كان كمن يصطاد الهواء من الهواء، وكانت حركاتُه أثناء تنفسه العسير مصحوبةً بزرقة جلده وتقلصاتٍ في عضلاتِ صدره وانتفاخٍ لعرقين في رقبتِه ومصحوبةً أيضا بصوت ينبعث من صدره يشابه صوت أزيز الطائرة. ولا ينقذه من هذا التعب إلا رذاذ الدواء المرشوش في حَلْقِهِ من بخاخ يحتفظ بها في جيب جلبابه، فكان يضغط على البخاخ بعنف وبيدٍ مرتعشة، وبسرعة يتلقى الرذاذ قي فمه كرضيع جائع ينقض على ثدي أمه أو كغريق مستجير وقد أُلقيت له قطعة من الخشب ليلتقطها.

وكان متولي يعمل في مطعم الحاج أَحْسَن للفول والطعمية في حوش الغجر بالملك الصالح، وكان مسؤولا عن عمل عجينة الطعمية، فكان يُبَيِتُ الفولَ منقوعاً في الماء، وفي الصباح يخلطه بالبصل والثوم وبعض الكُرّات، ثم يطحنه في حجر دق الطعمية. وكان مطعم الحاج أحسن هو المطعم الوحيد في مصر العتيقة الذي ما زال يدق الطعمية يدويا، وكان متولي يَشْلَحُ النصف الأسفل من جلبابه ثم يدخله في فتحة بجانب الجلباب فينحصر جلبابه عن الأرض ويتَحَصّلُ متولي على حرية لحركة ساقيه الرفيعتين، ويمسك بذراع الحجر بهمة، وهو كتلة طويلة ومستديرة من الصلب اللامع، ويصدمها بجدار تجويف في الحجر بقوة وفي حركات متكررة لمدة نصف الساعة، فتتفتت مكونات الطعمية وتتحول إلى عجينة يناولها لزملائه المنتظرين ها. وبعد هذا المجهود الشاق كان متولي يأوي إلى ركن بالمطعم ويخرج من جيبه علبتين، واحدة لبخاخ الربو ويستعملها، والأخرى بها لفة صغيرة من ورق السلوفان، ويغمس فيها طرف أصبعه الصغير ثم يرفعه لفمه ويستمتع بمص إصبعه وابتلاع ما حمله من أفيون. ولسوء حظه وفي أحد الأيام دفع الواد حمص تلك الذراع الثقيلة فوقعت على قدمه وتورمت أصابعها وآلمته كثيرا، وأثناء عودته متألما من عمله رآه الأب متياس وهو خارج من كنيسة أبو سرجة وبعث له الدكتور بشوي ليلاً ليطببه.

وبشوي يعرف متولي أبو أحمد، حيث كانت عيادته بجواره عند التقاء حارتهم بشارع أبي سيفين، ويعرف أن متولي ما كان ليستدعي طبيبا

خاصا ليعالجه لولا أن الكنيسة ستقوم بالواجب، و يعرف رقة حال أهل حوش الغجر، ولكنه لم يتوقع بؤس ما رأى عند زيارته لمتولي، فقد كان متولي يعيش هو وأم أحمد وخمسة أطفال في غرفة تحت سلم أحد البيوت القديمة، وكان باب غرفته الخشبي منزوعا من إطاره وليس له ما يُغْلَقُ به، فليس بالغرفة ما يُسرق، كما أنه ليس بها مكان ليسع غريبا فيدخلها، ولم يكن بها مصباح كهربائي، فمتولي لا يعرف ترف استعمال الكهرباء، وكانت جدرانها سوداء مهببةُ ولمبة الجاز لا تجدي شيئا في إنارتها، ولم يكن بالغرفة مصدر لتغيير الهواء أو لدخول الشمس فكانت شديدة الرطوبة وباردة، ولم يكن بها من أثاث سوى كنبة ملتصقة بجدار الغرفة الأسود وفرشها لا يقل سوادا، جلس عليها متولي مبعدا ساقيه، ومتكئاً بزنديه على ركبتيه، وواضعا رأسه بين كفيه ووجهه يتجه للأسفل بعد أن يئس من أزمة الربو اللعينة فقد أنهكته أشد الإنهاك. وعندما بدأ الدكتور بشوي كشفه استطاع عد ضلوع متولي ضلعاً ضلعاً، فلم يكن متولي مُتْرَفاً ليحوز بعض الدهن فيستر ضلوعه، كما وجد بشوي في صدر متولي ما هو أهم من قدمه المتورمة، فأوصى بإلحاقه بمستشفى الكنيسة للعلاج..

ـ 9 ـ

محروس وثابت أخوان يعيشان فى منزل واحد، وهما دائما مختلفان فى آرائهما، فمحروس يفكر فقط بالطبقة الخارجية من مخه، أما ثابت فيعمل عقله فى التفكير فى كل أموره، ويستنبط رأيا راجحا، عاده لا يفهمه محروس.

محروس فى بلاهة يخاطب أخاه: إيه يا عّم اللى أنت بتقوله ده. ده عاوز تفكير السنين. وانا بصراحة التفكير يوجع لي رجلي.

ثابت ينظر لأخيه في دهشه، وبدون يأس، يستمر فى شرح أفكاره، لعل محروسا أن يفهم..

10

يسترخى الدكتور أسامه محروس على مقعده بالطائرة المتجهة إلى فرانكفورت، وما أن أخذت محركاتها فى الدوران، وعجلاتها فى التحرك، حتى أغمض الدكتور أسامه عينيه وغمغم بالشهادتين، وأسترجع ذكريات الأعوام الثلاثة الأخيرة من عمره. عام بأكمله يرتدى خلاله البالطو الأبيض، ليستمتع بإحساس أنه طبيب، ولكنه عمليا كان يقوم بإحضار أكياس الدم للمرضى، من بنك الدم فى الجهة الغربية من مستشفى سيد جلال، هذا العام يسمى بالامتياز، لكن الدكتور أسامه لم يجد فيه ما يمت للامتياز بصله. وعام ثان، كانت وظيفة الدكتور أسامه خلاله مجرد الاحتفاظ بصندوق صغير به بعض الأقراص ودفتر أرانيك لتحويل الجنود المرضى للمستشفى التابعة لها وحدته. أما العام الثالث فكان أيضا ممل ورتيب، وخُصِمَ من عمره بلا أدنى خبره أو منفعة مادية، عمل خلاله في الوحدة الصحية بقرية الكوع بالقصاصين. فكانت سنوات ثلاث زادت إحساسه بالقهر والضعف وألجأته إلى الفرار.

استغرق أسامه رحلة الطائرة في حلم طويل تشتتت فيه نفسه بين

الأمل في المستقبل والرهبة من المستقبل، وبين الفرحة لتفلته من يأسه والخوف من انتظار شيء غير واضح المعالم، ولكنه لملم عزيمته وشجع روحه وقال: إِنْسَ يا أسامه كل هذه المعاناة، الخير فى المستقبل، إنه قادم بلا شك، أنا أراه ورديا ومشرقا وجميلا، تفاءل يا أسامه، كل العظماء مرت عليهم لحظات قاتمة، ولكنهم بالعزيمة والتصميم وقوه الإرادة حققوا النجاح. وأفاق على صوت المضيفة ترحب بالركاب فى فرانكفورت، وتذكر في هذه اللحظة أن كل ما يربطه بألمانيا شيئان، خاله محمد شريف صاحب محل صغير للاتصالات الهاتفية الدولية فى فرانكفورت، وتعلمه الألمانية كلغة ثانيه بمدرسه أغاخان الثانوية.

هاجر الخال محمد شريف لألمانيا فى الستينيات، واستقر فى فرانكفورت، وتزوج سيدة ألمانية، ونظرا لتقدم سنه في ذلك الوقت فقد عاشت معه حفيدته جويريه، وكانت جويرية تدرس الاقتصاد بجامعه فرانكفورت. واستضاف محمد شريف وجويريه الدكتور أسامه حتى انتقل إلى برلين، وعمل فى توصيل البيتزا للمنازل، وكانت خطه الدكتور أسامه أن يعمل ويدرس فى نفس الوقت. واستطاع فى وقت قصير أن ينجح فى اختبار معادله بكالوريوس الطب المصرى، ولكن كل محاولاته للحصول على وظيفة تدريبيه كطبيب بألمانيا باءت بالفشل، وظل يحاول ويحاول، ومرت سنوات وسنوات وهو مازال محتفظا بشهادة تخرجه فى صندوق خشبي صغير تحت سريره، ويحدوه أمل أن يحين وقت قريب لاستخدامها وليمارس الطب الذي تعلمه، ومع أمله الكبير كان هاجس

الخوف من الفشل يغمره، ولكنه لدى مراجعته لهذه الشهادة كان يبتسم ابتسامة بسيطة.

وبالرغم من فشل أسامة في ممارسة الطب في ألمانيا، إلا أنه حقق نجاحا باهرا فى مجال البيتزا، واشترى المحل الذي يعمل به، وتزوج جويرية، وساعده هذا الزواج أيضا فى تقنين إقامته بألمانيا. ولم تكن جويريه جميله، فعلى الرغم من أصولها الألمانية فهي لا تمت للألمانيات بأية صلة فى الجمال أو في الأنوثة، وقد غلبت عليها الجينات المصرية فى ملامحها، وفى لون بشرتها، وفي تجعد شعرها، أما جيناتها الألمانية الخاصة بالذكاء، وإتقان العمل فكانت طاغية وبشكل قوي، فساعدت زوجها كثيرا فى إدارة أعماله وزيادة دخله، حتى أنهما خلال السنوات العشر كانت لهما أفرع لمحلهما فى كل المدن الألمانية. وأصبح أسامة الآن معروفا بالهر محروس. ومرت السنون سريعا، ومع مرورها ازدادت ثروة الهر محروس والفراو جويريه حتى بلغت الملايين، وتطور نشاطه، فبالإضافة لمحلات البيتزا اشترى الهر محروس شركة للتنقيب عن الغاز فى بحر الشمال، وشركة للطيران، واشترى أيضا نادى بايرن ميونخ لكره القدم، وأصبحت الملايين مليارات، وما تزال شهاده تخرجه قابعه فى نفس الصندوق الخشبي الصغير تحت سريره، كل ما تغير هو ما فوق الصندوق ومكانه، فبعد أن كان سريرا ضيقا، فى غرفه صغيره، بشقه مشتركه بإحدى ضواحي برلين، أصبح سريرا كبيرا منقوشه أطرافه بماء الذهب، ومغطى بفُرشٍ من حرير، كما تواجد هذا السرير فى قصر منيف على أطراف مدينه فايسبادن،

وأحاطت به ألاف الأفدنة، كلها مملوكه للهر محروس.

انقطعت صله الهر محروس بمصر، وقد تجاوز الستين بقليل، وأصبح شغله الشاغل هو أعماله وتنميتها، وما زال يخلو بنفسه كل يوم، ويجثو على ركبتيه بجانب سريره ويخرج صندوقه ويراجع شهادة تخرجه من كليه الطب، ويبتسم ضاحكا..

_ 11 _

أمضى رياض خمسه وعشرين عاما بالسجن، يحلم بيوم خروجه وانتقامه من إلهام. كانت عشيقته، وأغرته بقتل زوجها، ليتزوجا. وما أن حكم عليه بالمؤبد حتى ارتبطت بعشيق آخر.

ودأب رياض في يأس على تكرار: يا لها من خائنة، موتها فقط يشفى غلى، ويريح قلبي وكان يكرر ذلك كل ليله من ليالي السجن المؤلمة والمظلمة، حتى أصبح هدفه ومبتغاه، ورسمه كخطه وحيدة، جاهزة للتنفيذ لدى خروجه.

خرج من سجنه محنى الظهر، ضعيف النظر، مرتعش اليدين، واشترى سكينا حادا وطويل النصل، وتربص بإلهام.

استل سكينه، وتفحص إلهام من مسافة، وعند اقترابه منها وجد إمراه غير التي أثارته وأنسته عقله ودفعته للقتل. فقد تغير القوام النحيف إلى كتله كبيره من الدهن، وتهدل صدرها وكرشها، واكتسى وجهها بالتجاعيد، وانحنى ظهرها، وكانت تترنح يمنه ويسره لمرض ألم بأعصابها، فكانت مشيتها عرجاء.

ضحك رياض بهستيرية وألقى السكين في الترعة، وهام على وجهه بالمحمودية حتى كُنِّيَ بمجنون إلهام..

_ 12 _

في حديقة منزلها، تدور شيماء ذات الخمسة أعوام حول نفسها، بقوة وبسرعة، حتى تقع على الأرض لشده تأثير الدوار عليها، وتفتح ذراعيها وهي مستلقيه على ظهرها وناظرة للسماء، وتترك رأسها ليتأرجح في حركة دائرية، ثم تغمض عينيها، وتضحك من أعماقها. وما أن يهدأ الدوار حتى تنهض مرة أخرى وتعاود الكرة، مرات ومرات.

في ذات الوقت يتمدد جدها الحاج عبد الظاهر خائفا يتصبب عرقا، على سرير الكشف بعيادة الدكتور سمعان، أخصائي العصبية، فالدكتور سمعان يخبره بنتيجة الأشعة المقطعية، ويقول: للأسف يا حاج الدوار اللي جالك امبارح كان سببه ورم صغير بالمخ.

الدوار نفس الدوار، يبهجنا ونحن صغار، ويصيبنا بالهلع مع تقدم العمر..

13

على الرغم من حبها لزوجها كانت حياتها معه رتيبة ومملة. وكانا يعيشان في الكلابية بإسنا ويعملان بالتدريس. لم يرزقهما الله أطفالا. وبالرغم من اجتهاد زوجها ومحاولته إرضائها كانت لا تشعر بسعادة، وحاول زوجها مرارا أن يفْرِجَ عنها بهدية، فكان لا يجد لهديته صدى أكثر من ابتسامة صغيرة وكلمة شكر مقتضبة، ثم تعود لبؤسها وحزنها. وكانت دائما تنظر خلال النافذة للشارع علها تجد جديدا يثير حياتها الراكدة، فلا ترى سوى رجالٍ يجلسون القرفصاء وقد تحلقوا أمام مسجد العبد متحادثين، وكان حديثهم في ذلك اليوم حول جثة الشاب التي أُخْرِجَت من ترعة الكلابية، وكيف أنها كانت مشوهة وعفنة وتفوح منها رائحة نتنة، فزادها حديثُهم غماً وبؤساً، أو تشاهد عربة يجرها حمار بصعوبة وصاحبها مشغول بجمع ما يتساقط من حمولتها من روث ويعيده إلى العربة، فتتشبع نفسها بشحنة جديدة من الاكتئاب وتغلق نافذتها وتعود لهمومها. ونظرا لطبيعة بلدتهما الملتزمة والمتزمتة لم يكن هناك مجال للتنزه أو الترويح عن النفس، وكانت مشاهدة التلفاز وزيارة الأقارب ولقاؤها الحميمي بزوجها هي مجالاتها

المتاحة لخلق المتعة، أيّة متعة. وبمرور الوقت أمست هذه الأشياء أيضا مملة كحياتها كلها.

فكرت كثيرا، كيف تكسر ملل حياتها وفتور نفسها وسكونها أو مواتها كما كانت تصفه، فلم تجد لذلك حلا حتى رأت ياسر، وهو مدرس حديث التخرج، التحق بمدرستهم للتدريب، وكان صغير السن، حسن الملامح وأسمر البشرة، أجعد الشعر وأسوده، باسم الثغر حيث تَظهَر أسنانُه بيضاءَ عند ابتسامه، وهو مبتسم دائما، ودائما أيضا ما يرتدي بدلة أنيقة، ورباطُ عنقه الأحمرُ اللون يزيده جمالا. فأعجبت به. وكانت عادات الصعيد لا تسمح لها بأكثر من تبادل التحية، وهي تريد أكثر من ذلك، تريد أن تحادثه، تريد أن تجلس إليه، تريد أن تلمس يديه، تريد أن تعانقه وتقبله، وتريد وتريد. فكانت تراه لدى دخوله حجرة المدرسين، فلا تظهر لهفتَها لرؤيته، بل تنظر إلى ما في يدها من كرّاسٍ وتضع يدها الأخرى على جبهتها، فتخفيَ عينيها اللتين تنظران للأمام ومن خلال الأصابع تتفحصان ياسر. وأضحت تنتظر وقت الفسحة لتشبع عينيها بالنظر إليه، عند ولوجه للحجرة، وكانت أحلام يقظتها تلك أقصى ما تستطيع في الكلابية، ولكنها مازالت تريد الأكثر.

هداها خيالها أن تحاكي زوجها وتشابهه بياسر أثناء علاقتهما الحميمة، فسرت لذلك كثيرا، ورأت في ذلك سبيلا لكسر جمود حياتها، وكانت وكأن ياسرَ الجميلَ يعانقها ويقبلها، ويفعل ما تمنته ورغبته أثناء يقظتها، فاستعادت طمأنينتها وهدوءها ولاحظ زوجها اعتدال مزاجها بعد طول

خمود، وعودة نشاطها بعد دوام ركود، وخاصة أثناء الليل فسر لذلك كثيرا هو الآخر، ولم يستفسر عن السبب وخاصة لاعتقاده أن تحسن أدائه هو سبب سعادتها.

وفي آخر يوم لياسر بالمدرسة ودعته بتحية بسيطة، وكانا وحدهما بحجرة المدرسين فملأت عينيها بالنظر إليه طويلا، وكان اليوم حارا فخلع ياسر سترته وشمر قميصه، فظهر ساعداه الملآنان، ودنت منه حتى أحست أنفاسه، وكادت يداها أن تمتدا لتلامس جسده وتتحسَسَا عضلاتِه المثيرة لولا جلبة دخول الزملاء وصَخبهم فابتعدت، وقررت أن تحاكيَ هذه اللحظة المفتقدة مع زوجِها ليلا. ولكنها للأسف عندما أغلقت عينيها في سريرها مع زوجها، وبدأت محاكاتها المرتقبة لياسر، تلمست ذراعي زوجها العاريين فلم تجد إلا عظما رفيعا يكسوه جلد رقيق، فأفاقت من محاكاتها ومع تعجب زوجها لما ألم بها أضاءت نور الغرفة وانتصبت في منتصف سريرها جالسة وناظرة لزوجها شزرا حتى كادت أن تفترسه، ضاغطة على أسنانها، وكانت تصدر صوتا كزمجرة الرعد، وعادت لاكتئابها..

_ 14 _

استغرق الدكتور سعيد البرقوقي، استشاري الأنف والأذن والحنجرة نصف ساعة كاملة في شرح حالة الطفل ألكسندر سميث، حيث ساعدته الممرضة الجميلة والنحيلة بيفرلي، ذات الابتسامة الرقيقة، بوضع مجسم كبير للأذن أمامه، ليطبق الشرح عليه. فأوضح لمستر وميسيز سميث معنى التهاب الأذن الإفرازي، وبين أسبابه، وطرق علاجه، واستفاض في شرح معنى أنابيب تهوية الأذن، وكيفية عملها. ثم أجاب بإسهاب على استفسارات الأبوين بشأن ما قد يحدث لابنهما من مضاعفات. أظهر الدكتور سعيد أثناء المناقشة هدوء شديدا، وأوضح أنه على أتم الاستعداد للإجابة على مزيد من الأسئلة، فقد حرص على إظهار أنه غير متبرم لطول الحوار ولكثرة الاستفسارات، هكذا تعلم أن يعامل مرضاه في إنجلترا، وكان يتعمد أن يظهر لمستر وميسيز سميث أنه ينظر إليهما باهتمام شديد للشرح وللإجابة، إلا لحظات قصيرة لم يلاحظاها، حين تتحول عيناه للتأمل فى أرداف بيفرلي، وهي تتحرك بالغرفة، ويرفع حاجبه الأيمن، ثم يخفضه بسرعة، مع هزة بسيطة لرأسه، متمتما دون أن يلاحظاه أيضا،

سبحان المبدع المصور. كان ذلك في مستشفى ساوث هامبتون خلال عمله هناك لمدة شهر واحد أثناء إجازته السنوية، وكان قد تدرب سابقا بمستشفيات لندن لمدة طويلة، قبل عودته لمصر.

عند انتهاء الشهر عاد الدكتور سعيد لعمله بمستشفى اليوم الواحد بمدينة نصر، وفى يوم شديد الحرارة اجتاز جموع المرضى المحتشدة أمام العيادة، بصعوبة ومشقة بالغة. ولدى دخوله العيادة مرهقا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، فقد رأى أمامه نصره، الممرضة المنتقبة ذات المئة والثلاثين كيلوجراما، حيث بادرته صائحة، حمد لله عال سلامه يا دكتووور، هي لا تساعده في شيء، كما ينبغي لها، ولكنها فقط تجلس على كرسي خلف باب العيادة للنداء على المرضى، وتحتفظ بالتذاكر لتسليمها في نهاية اليوم لعم جرجس، معاون المستشفى. وراجع الدكتور سعيد البرقوقي في ذلك اليوم حالة مشابهة لحالة ألكسندر، حيث كان الطفل المصري يعاني من التهاب الأذن الإفرازي أيضا، وبعد الكشف السريع قطب الدكتور سعيد حاجبيه، وألقى بنظارته الطبية على المكتب الصاج أمامه، فارتطمت ارتطاما شديدا بسطحه، أرعب الطفل ووالده، وانزلقت لمسافه نصف المتر، تاركة أثرا واضحا في طبقة التراب السميكة والجاثمة فوق المكتب. ثم نظر لوالد الطفل مشمئزا، وخاطبه من طرف أنفه المتجه لأعلى قائلا: محتاج أنابيب، العملية السبت الجاى، كلم سميحة بره، مع السلامة.

نصره تنادى بصوت أجش ومخيف، اللي بعده..

- 15 -

مع انتصاف الليل وصل الدكتور سعيد البرقوقي لعيادته الخاصة في باب اللوق، وقد امتلأت بالمرضى وأهليهم، اللذين احتملوا تأخر الدكتور سعيد دون ما تململ أو امتعاض. ولم يغادر أبو عِجْلِة صاحب نصبة الكبدة أسفل العمارة مبكرا، كما اعتاد، فزبائن الدكتور سعيد جعلوه مشغولا طوال الليل لكثرة طلباتهم وهم ينتظرون حضور الطبيب المشهور.

انشغل الدكتور سعيد مع الشلة في نادى بلاتينيوم بالتجمع، خاصة مع تواجد مدام نيللي لأنها طرت القعدة كما يقولون، حيث ارتدت بنطلونا من الجينز الضيق، وقد أرخته للأسفل، وعقدت بلوزتها الزرقاء ذات الحمالات الرفيعة تحت ثدييها مباشرة، حتى تتماشى مع موضة هذا العام، فأظهرت أشياء كثيرة ومثيرة، وتحلقت حولها الشلة، وكان الجميع منبهرا بها، لا فارق بين رجل وامرأة، فأكثرت نيللي من نكاتها ذات الإيحاءات الجنسية، وتعالت ضحكاتها الرنانة والرقيعة، وسادت جلستهم البهجة حتى نسى الدكتور سعيد نفسه ومرضاه، ولم يغادر إلا لإحساسه بألم

أسفل بطنه عندما أطال النظر لبطن مدام نيللي، ولكنه تغلب على هذا الألم اللعين بتناول كأس من الويسكي في سيارته المرسيدس وهو في طريقه للعيادة، مرددا منك لله يا نيللي.

لدى دخوله العيادة ساد الصمت احتراما للدكتور، وبعلامة متفق عليها مع محمد النوبي، التومرجي، علم الدكتور سعيد أن عدد المنتظرين خمسة وثلاثون، وقرر أن ينهى العمل في تلك الليلة خلال ساعتين فقط، قائلا لنفسه شغل إنجلترا ده مش وقته يا سعده إحنا تأخرنا، كما لم ينس أن يردد وبحرقة ألله يخرب بيتك يا نيللي، وخلال عمله اتصل بالدكتور ميشيل عبد المسيح استشاري التحاليل، وخاطبه: أيوه يا مايكل، امبارح بعت لك خمسة صورة دم وستة هرمونات، كده يبقو ست الاف، ياريت تبعتهوملى مع نصحى دلوقت. وهاتف الدكتور إبراهيم استشاري الأشعة: ألو يا أبو خليل، إمبارح جالك أربعه مقطعية وتمانية مغناطيسي، هعدى عليك بكره واخد العشرة الاف عشان المازدا السى اكس خمسة الجديدة جايه الأسبوع الجاى. كان يعامل مرضاه بعنف وغطرسة وتكبر واستهانة، وهو مقتنع أنه كلما زاد في إذلالهم واحتقارهم ازدادت شهرته وذاع صيته، فعندما سأله أحد مرضاه إزاى يا دكتور هتشيل اللوز؟ اشتاط الدكتور سعيد غضبا وصرخ فيه: اسمع بقي عشان انت بتسال كتير، وانا مش فاضي لك، عشان تفهم، روح ادرس طب سبع سنين وتعالى وانا اشرح لك. وفى تلك الليلة أوصى الدكتور سعيد سبعة عشر مريضا من المتواجدين بإجراء عمليات جراحية، وكان اثنان فقط منهم

يحتاجان الجراحة. وقد ارتأى في ذلك التدليس طريقا للشهرة والمال. وللأسف هذا ما تحقق له أيضا.

وقبل مغادرة الدكتور سعيد عيادته وصلته رسالة إلكترونية من سيستر أوزوالد بمستشفى ساوث هامبتون، تخبره بأن مسيز سميث سعيدة بحرفيته في الشرح خلال علاجه لابنها ألكسندر، وأخبرته أن مسيز سميث وصفته بأنه نجم، وهو وصف يتداوله الإنجليز ويعنى شده الامتنان لشخص المخاطب. وطلبت منه سيستر أوزوالد أن يحضر إليهم للعمل لمدة شهر أخر أثناء فترة الكريسماس، مع استعداد المستشفى لتحمل تكاليف السفر والإقامة..

16

فرح عم شعبان فرحا عظيما لتخرج ابنه حامد من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بتقدير ممتاز، ولكن غصة أصابته في صدره عندما رفض حامد نصيحته. فقد قرر حامد التقدم لوظيفة دبلوماسية أعلن عنها مؤخرا بوزارة الخارجية، حاول عم شعبان أن يثنيه عما ينوى، وخاطبه بصوت واهن ومرتعش: يا بنى المثل بيقول على قد لحافك مد رجليك، واللي يبص لفوق يتعب، بلاش يا حامد يا بني، والنبي بلاش تتعبني في أواخر أيامى. فيرد عليه حامد بحده وتصميم: يا بابا الدنيا تغيرت، ومبقاش في فرق دلوقت بين وزير وغفير، وأنا قررت خلاص.

كان عم شعبان حارسا للعقار 115 بشارع فيصل، وله ابن آخر يدعى عابد ويعمل لحاما للكاوتشوك، وابنه تدعى فضيلة متزوجة من محرز عامل الدليفرى. وكان عم شعبان مقتنعا أنه من المستحيل تماما أن يتم اختيار ابنه حامد لهذه الوظيفة، فلا داعي لخوضه هذه التجربة وتعرضه لتجربه الفشل. ولكن أم حامد تداخلت في الحوار واقترحت اقتراحا مثيرا، حاز على إعجاب الرجلين.

كان المخطط ألا يذكر حامد إخوته في كشف العائلة المرفق بطلب الوظيفة، وأن يقوم عم شعبان باستئجار فيلا مفروشة بالشيخ زايد،

تنتقل إليها الأم وشعبان وحامد فقط، وبالفعل تم ما اقترحت أم حامد، وتعمد عم شعبان عند انتقاله للعيش في الشيخ زايد أن يشيع في الحي أنه من رجال الأعمال. وكانت مدخرات عم شعبان من حراسة العمارات وغسيل السيارات تسمح له باستئجار الفيلا والكف عن العمل كبواب طوال فترة التحريات عن نجله.

اجتاز حامد كل الاختبارات بامتياز، وكان سعيدا جدا بنجاح خطة والدته، فأخيرا ستتغير حياته، سيغادر الغرفة المظلمة والرطبة التي يقيم فيها تحت السلم ، وسيركب سيارات الخارجية الفارهة، وسيسافر إلى بلاد العالم المختلفة، وسيحضر حفلات الاستقبال مع علية القوم، وفى هذه الحفلات سيقابل نساء جميلات ترتدين فساتين أنيقة وعارية، وسيتناول أيديهن بكل رقة ونعومة، ويرفعها نحوه، ثم ينحني برفق حتى تقارب جبهته صدورهن الجميلة، ويطبع قبلة ناعمة على أيديهن، وفى إحدى هذه الحفلات سيتعرف على بنت سفير، وبالطبع ستكون فاتنة وسيتزوجها، ، وسينجب منها خمسة أطفال، سيوفر لهم الحياة السهلة الرغيدة التي لم يشهدها، وسيلحق أطفاله بالمدرسة البريطانية ، وسيتملك فيلا بكومباوند الدبلوماسيين في التجمع، وشاليه بقرية الدبلوماسيين في الساحل. ويقول لنفسه خلاص لعبت يا زهر، وباقي على الحلو تكه، فلم يتبق إلا اختبار كشف الهيئة، للتفضيل بين إثنين، كان حامد أحدهما. وعند دخوله للجنة كشف الهيئة، متأنقا وواثقا من نفسه، وجد معتز بك الشهاوى السفير المقيم بالعقار رقم 115 بشارع فيصل مترأسا للجنة..

- 17 -

بعد هجرتهما من باكستان استقر أمان الله خان وزوجته، فى لندن، حيث عمل سائقا لأتوبيسات لندن، وعملت زوجته كخياطة. وأنجبا ثمانية أولاد وبنت واحدة، كان أحد أبنائه يدعى صديق، وولد في العام 1970. وعندما بلغ صديق السابعة سأل والده مستغربا: لماذا يا والدي نهاجر، ونترك بلادنا ونعيش في هذه البلاد؟ فيرد أبوه بهدوء: ديننا يا بنى أمرنا بالسعي لطلب الرزق، والرزق هنا أوفر والحمد لله، وإنني لأتوقع لك ولإخوتك مستقبلا باهرا، قد يكون أفضل كثيرا مما هو متاح لكم فى باكستان، فيصمت صديق وهو ينظر لوالده، متمتما إن شاء الله.

في سن الخامسة عشر مارس صديق خان السياسة وانضم لحزب العمال. كما كان مجتهدا في دراسته، وأصبح محاميا مشهورا، وتخصص في الدفاع عن حقوق الإنسان، فدافع عن مصففة شعر اعتدى عليها رجل شرطة، ودافع عن رجل بوليس أسود اُتهم بالنصب.

في العام 2005 أنتخب صديق خان عضوا في البرلمان عن منطقة

توتنج بجنوب لندن. وفى العام 2009 اختاره جوردن براون رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت كوزير للنقل، فكان أول وزير مسلم في بريطانيا. وقد اعترض إدموند وايت المستشار السياسي لجوردن براون على هذا الترشيح، متسائلا بحدة: لماذا يا جوردن تختار هذا الرجل وزيرا وأنت تعلم جيدا أنه مسلم وذو أصول آسيوية؟ فيرد جوردن براون بتوتر: عزيزي إدموند! صديق خان رجل ناجح، وأبوه رجل مكافح، وأنت تعرف جيدا أن ما تفوهت به الآن هو كلام عنصري ويضعك تحت طائلة القانون، وأنصحك يا صديقي ألا تتفوه به عى الملأ، فذلك الرجل يشارك في بناء اقتصادنا، والدولة تقتطع منه الضرائب مثلنا تماما، أذن فهو له نفس ما لنا من حقوق، وأنا مصمم على اختياري، فهز إدموند رأسه معترضا وانصرف.

في العام 2016 انتخب صديق خان عمده للندن بنسبة 55 ٪..

ـ 18 ـ

عمل الدكتوران محمد وأحمد بمستشفى خاص بإحدى الدول العربية، كان محمد متخصصا في علاج الألم، وأحمد متخصصا في طب العيون. وكانا موفقين في عملهما، ومشهورين بحسن الخلق ومهنية الأداء، حتى أن الأمراء وأصحاب الشركات كانوا يغمرونهما بالهدايا والعطايا حين يتم شفاؤهم أو شفاء ذويهم على يديهما، وقاربت فترة عملهما هنالك على عقدين من الزمان.

وكما يقال دائما، فإن دوام الحال من المحال، فقد حدثت لكل منهما مشكلة، حيث وصف الدكتور محمد المورفين بجرعات صغيرة كعلاج لآلام ظهر إحدى المريضات، ولكن هذه المريضة اعتادت أخذ جرعات أكبر مما وصف الدكتور محمد، فأدمنت المورفين. أما الدكتور أحمد فقد أصيب أحد مرضاه بالتهاب شديد في إحدى عينيه عقب إجرائه جراحة له بهذه العين، واستعصى ذلك الالتهاب على المضادات الحيوية مما أدى في النهاية لاستئصال العين، واستنتج الطبيب الشرعي حينئذ أن المشرط المستخدم في الجراحة لم يكن كامل التعقيم.

كانت أحكام هيئة القضاء الشرعي على كل من الطبيبين قاسية جدا، فجاء في سياق الأحكام: إن الهيئة قررت حبس الدكتور محمد لخمس سنوات مع جلده ثمانين جلدة أسبوعيا لتسببه في إدمان المريضة. وتحقيقا للقاعدة الشرعية التي تنص على أن العين بالعين، وجراء تسبب الدكتور أحمد في فقد المريض لإحدى عينيه فإن الهيئة قد قررت وخز سكين غير معقم بإحدى عيني الدكتور أحمد..

- 19 -

إيمان وكريمان أختان متزوجتان حديثا من عمر ومحمد. وفى إحدى نزهات تسوق إيمان وعمر، وبعد عشاء شاعري على أنغام الكمان، ولدى مغادرتهما للمطعم قابلتهما فتاة جميلة، اتجهت بسرعة حيال عمر، واحتضنته مع طبع قبلة على خده، قائلة: هاى عمر. فبدا عليه حرج شديد وسارع بتعريف إيمان على تلك الفتاه، محاولا التغطية على ما حدث، ولسان حاله يقول، الله يخرب بيتك يا شيرويت، ده وقته

يقول عمر وهو يتصبب عرقا: دى شيرويت يا إيمان، زميلتى في الشغل، ودى إيمان يا شيرويت، مراتى

شيرويت تبتسم ابتسامة زادتها جمالا وتقول: هاى إيمان، نايس تو ميت يو

ترد إيمان بصوت محتبس وفي ذهول تام : أهلا

شيرويت: معلش يا عمر أنا مستعجلة، أشوفك بكره في الشغل، وتنصرف هاتفة بصوت ناعم اغتاظت له إيمان: باااى

ساد الوجوم لثوان قليله، وكادت إيمان أن تسحق زوجها بعينيها

المتسعتين والجاحظتين لشدة غضبها، ثم انفجرت صارخة: جرى إيه يا عمر؟ وازدادت حدة كلامها وارتفعت نبرة صوتها: يعنى أيه صاحبتك تبوسك قدامى، هوه مفيش اعتبار لوجودي. تَحَلَّقَ حولهما نفر غير قليل من رواد السوق وحاولوا تهدئة الزوجين المتنافرين، فيرد عمر يائسا بعد نحنحة بسيطة وقد احتبس صوته وأُلجم لسانه: دى زميلتي مش صاحبتي، وهي متحررة وبتعامل الكل بنفس الأسلوب، ده حتى مسعود بتاع الشاي بتبوسه !

ترد إيمان وقد اشتاطت غضبا: يا حلاوة يا أستاذ، إنت بقى عوزني أصدق الكلام الفارغ ده، قول فيه ايه بينكم.

يحاول عمر الإمساك بيدها فتنهره قائلة: ابعد عنى، ما تلمسنيش، انت جرحت كرامتي، طلقني

عمر: إيمان ياحبيبتي حقك على، أنا من بكره هطلب منها ما تعملش كده تانى

إيمان وقد ظهرت الدموع بعينيها تصرخ بحدة مع الضغط على كل الحروف: طلقني. خلاص

ويمر شهران على الزوجين دونما أي حوار بينهما سوى إعادتهما ما سبق يوميا، وبمرور الوقت يزداد عناد إيمان، وتقل مقاومة عمر، فيطلقها

حدث نفس الموقف مع كريمان ومحمد، ودار أيضا بينهما الحوار التالي

كريمان مقطبة جبينها: ايه اللى حصل ده يا محمد؟

محمد مرتبكا: أبدا يا حبيبتى، دى هايدي زميلتي في الشغل، وهي

واخده على كده

كريمان في ذهول: أزاي تبوسك قدامى؟

محمد: حقك على يا كوكي يا حبيبتى، خلاص هقول لها ماتعملش كده تانى

كريمان تنهى الحوار بدلال: هنشوف

وفى اليوم التالي يدلف محمد لمنزله متسللا على أطراف أصابعه في خفة وهدوء، وكانت كريمان بالمطبخ تغسل أطباقا، وقد أحست باقتراب زوجها، ولكنها استمرت في دندنة أغنيتها، وكأن شئيا لم يحدث. وبحنان احتضن محمد زوجته من الخلف، وطبع قبلة على الجانب من رقبتها، فاحمر وجه كريمان خجلا وتظاهرت بالمفاجأة، ثم استدارت لتجد وردة حمراء بينها وبين محمد، وقد قربها محمد من وجهها، قائلا بحنان وبصوت خفيض: أنا آسف يا كوكي على الى جرى امبارح، وعاوزك تكوني متأكدة إنه مش هيحصل تانى أبدا

ابتسمت كريمان في سعادة وقالت برقة: خلاص يا حماده الموضوع خلص، ولو اللى عملته هايدي ده هيخليك ظريف وحنين كده قول لها تعمل كده تانى. وتقبل زوجها بعد أن غمرتها نوبة من القهقهة العالية، ثم يحمل محمد كريمان بين ذراعيه لمكان آخر بالمنزل..

- 20 -

عند إحالته للتقاعد من العمل بالتأمين الصحي، استمر الدكتور ناجح ممتاز في العمل بالمستشفيات الخاصة لعدة سنوات، وكان بارعا في التخدير، وينوي الاستمرار في ممارسة الطب إلى ما شاء الله

خلال الأسبوع الماضي فقط وجد الدكتور ناجح صعوبة في العودة لمنزله، فاتصل بابنه، وأخبره أنه ينتظره بقهوة زكريا، وهي على مقربة من منزلهم، كما أخطأ الدكتور ناجح في حساب جرعة الأنسولين لإحدى المريضات، ولم يتمكن من تركيب جهاز ضخ المورفين، فساعدته إحدى الممرضات في تركيب ذلك الجهاز. وكانت يداه مرتعشتين كما لم يعتد من قبل.

اليوم قرر الدكتور ناجح أن يتقاعد نهائيا..

- 21 -

بيتر ماك أليستر وبطرس متى طفلان متشابهان في الاسم والديانة والعمر، حيث يبلغ كل واحد منهما أحد عشر عاما. ولكنهما مختلفان في كل شيء، فبيتر يعيش في ستيرلنج بإسكتلاندا أما بطرس فيعيش في بني مزار بمصر. ليس هناك ما يدعو للمقارنة بين حياتيهما فذلك ظلم بَيّن، ولكن كيف يقضى كل من هذين الطفلين عطله نهاية الأسبوع؟

يقوم مستر ماك أليستر باصطحاب بيتر صباح السبت في نزهة لإحدى غابات ستيرلنج، ليراقب الطيور البرية عن بعد بمنظار مقرب، وليشاهد الفراشات بألوانها الجميلة أثناء طيرانها، ولشده سعادته يركض بيتر ضاحكا في كل الاتجاهات، ملوحا بيديه في الهواء، ومحاولا الإمساك بالفراشات، وصدى ضحكاته يدوي فى فضاء الغابة، فيضفى جوا من البهجة والسعادة، ويرسم على وجه مستر ماك أليستر ابتسامة جميلة. في نهاية اليوم يقوم بيتر برسم ما رآه من طيور وفراشات، مستخدما ألوانه الزاهية وفرشاته الناعمة، حيث يقدم هذه الرسومات في الأسبوع التالي لمدرسته، وذلك هو واجبه المدرسي. وفي صباح الأحد يقوم بيتر بتزويد

صندوقه الخشبي ذي الجوانب السلكية المعلق بحديقة منزله بالحبوب، حتى تتجمع الطيور حوله وتلتقط ما تستطيع، وهو يستمع لزقزقتها، ويستمتع بمشاهدتها. وفى المساء يشاهد بيتر أحد أفلام الرسوم المتحركة فى سريره، متدثرا بغطاء ناعم ودافئ، ومستمعا بقبلات أبويه الحنونة.

أما بطرس فقد أرسله عم متى لورشه الأسطى ملاك الحداد، حيث يمضي يومي الجمعة والسبت ناقلا قطع الحديد الخردة، من المخزن إلى المَصْهَرَةِ، وكثيرا لا يقدر جسده النحيل على تحمل ذلك العمل الشاق، فيسقط على الأرض منتحبا وباكيا، وتتناثر حمولته حوله، فينظر إليه الأسطى ملاك بشذر، ويبادره صارخا: قوم يا إبن الـ .....، وسرعان ما يتحامل بطرس على نفسه وينهض بصعوبة، تفاديا لشتائم سيكيلها له الأسطى. يستمر بطرس المرهق فى العمل دونما راحة، وتكسو وجهه الشاحب نظرت بائسة، ولسان حاله يقول فى يأس مرير: ليه كده يا رب؟ وفى نهاية يوم السبت يعود بطرس لمنزله ومعه خمسه جنيهات، ينفقها والده كلها فى شراء الفول، لعشاء بطرس وإخوته..

ـ 22 ـ

صابر المصري سائق للتاكسي في لندن، استقلت ماري جريفيث سيارته، ليقوم بتوصيلها من منزلها بحى هامر سميث إلى مطار هيثرو، وعندما علمت بأنه مصري دار بينهما الحوار التالي

ماري بقلق: أنا سأستقل الطائرة لزيارة مصر الآن، ولكنني عرفت من أصدقائي على تويتر أن مياه الأمطار قد أغرقت أحد الأحياء الراقية بالقاهرة. ولقد حزنت لذلك كثيرا.

صابر محاولا عدم الانفعال: الكوارث تحدث فى العالم كله.

ماري بدهشة: ألا تدفعون ضرائب فى مصر؟

صابر: بلى. ولكن لتسمحي لي ميسيز جريفيث بسؤال

ماري وهي تنظر إليه فى مرآه السيارة الأمامية باهتمام: تفضل يا عزيزي

صابر ناظرا للمرآة أيضا: كم تدفعين من المال كضريبه لحى هامر سميث، وما هي الخدمات التي تحصلين عليها لقاء ذلك؟

ماري تعتدل فى جلستها وتضع إحدى ساقيها فوق الأخرى وتشبك أصابع يديها، وتنتظر لبرهة، وكأنها ترتب أفكارها، ثم تسترسل: أدفع

مائه وسبعين جنيها إسترلينيا شهريا كضريبه لحى هامر سميث، وقد يبدو مبلغا كبيرا، ولكن لتتأمل يا صابر ما أحصل عليه نظير ذلك. فقد أمدنى الحي بصندوق كبير لتجميع القمامة، ثم تقوم سيارة القمامة الكبيرة التابعة للحى وفى أوقات معينة بجمع القمامة من المنازل، فلا داع لإلقاء القمامة بالشوارع أبدا، ولذلك تظل لندن كما ترى يا عزيزي نظيفة. ويداوم حي هامرسميث على إنارة الشوارع والعناية بالأسفلت، فأنا أشعر بالراحة عندما أقود سيارتي، بل وتتحول قيادة السيارة إلى متعه تسعدني.

والحى يشرف أيضا على خدمات الشرطة، فتقوم الشرطة بحمايتنا بكل حرفية، وبدون إهانة أو انتقاص لحقوقنا كبشر. وتقدم خدماتها بدون رشوة، وعندما تطلبها تستجيب بسرعة وبدون توصية، كما أنه لا داعي للقلق لرؤية ضابط البوليس، أو الخوف عند دخول قسم البوليس، فقد أخبرتني كيلي صديقتي أن ذلك القلق والخوف قد يصيبا مرتادي الأقسام البوليسية فى بعض البلاد.

ويا عزيزي صابر فإن هذه الضريبة تغطى أيضا خدمه المطافئ، ولاحظ أنه عند الاحتياج لخدمة المطافئ فإن تلك الخدمة تقدم بسرعة وبحرفية وبكفاءة.

رد صابر منبهرا ورفعا حاجبيه لأعلى، وقد خطر على باله أهله وأصحابه بعين شمس: ولكن ماذا عن التعليم الجيد والخدمة الصحية ذات المستوى الرفيع واللتين ألاحظ توفرهما في هذه البلاد؟

ماري وهي تنظر لكنيسة سان بول عندما مرت بها سيارة التاكسي

وترد بتلقائيه، وكأنها تصف شيئا بديهيا: هذه الخدمات الأساسية يجب أن تقدمها أي دولة محترمه لمواطنيها وبدون مقابل.

صابر يشكر ميسيز جريفيث على حديثها معه، ويدور اقتراح بعقله فيقول لنفسه: مع ملاحظة أننا في مصر ندفع ضرائب أيضا، لماذا لا نغير الأسطوانة لتصبح، يا ريت نبقى زي لندن. ومانقولش بدل ما نبقى زي سوريا والعراق..

23

بعد انتهائه من تلقيح الملكة جرى الذكر القوى في اتجاه تبه عالية، واعتلى تلك التبة متحديا كل الشغالات، حاولت بعضهن الإمساك به وقتله كما هو معتاد في مملكة النحل، فما كان منه إلا أن أمسك رؤوسهن بكلاباته القوية واحدة تلو الأخرى، ثم قام بلوى رؤوسهن يمنة ويسرة، فمتن جميعا في الحال. كان حدثا غير مسبوق في هذه المملكة الا يُقتل الذكر بعد تلقيح الملكة، فانبهرت بعض الشغالات بقوة ذلك الذكر وانضممن إليه، كما انبهرن بطريقته الجديدة في القتل، وأطلقن على أنفسهن اسم الفرقة الزرقاء حيث قمن بطلاء قرون استشعارهن باللون الأزرق.

في اليوم التالي امر ذلك الذكر بحشد جميع الشغالات ليستمعن لخطابه، وأصدر أمرا بعدم الخروج من المستعمرة، فازداد الازدحام، وصعبت الحركة. وقبل بداية الخطاب صرخت شغالة عجوز: أيها الذكر المغرور، أن ما قمت به بالأمس كان خارجا عن نواميسنا ونحن نطالبك بالرحيل وإلا قتلناك. نظر الذكر إلى شغالات الفرقة الزرقاء فهجمن على تلك الشغالة وقتلنها بالطريقة الجديدة، ووسط صمت الجميع

ودهشتهن، سمعت كل الشغالات صوت انكسار رقبة تلك الشغالة والذي كان له دوي كبير، فازددن رعبا وتراجعن للخلف، وكثير منهن اختبأ في الشقوق.

بادرهن الذكر قائلا: من الآن فصاعدا أصبحت أنا ملك المستعمرة، وعليكن أن تخاطبنني بمولاي الملك، وآمركن بجمع ما تستطعن من قطع الخشب الصغيرة لبناء حائط يفصل مستعمرتنا عن المستعمرة المجاورة، فانبرت إحدى الشغالات صائحة بتوتر: يا مولاي، منذ القدم ونحن نجاور هذه المستعمرة، وليس بيننا وبينهم أي سور، ولم تنتج عن ذلك مشكلة واحدة، نظر الملك للفرقة الزرقاء، فأدين المطلوب منهن، ودوى صوت انكسار رقبة تلك الشغالة المسكينة عاليا، فساد المستعمرة الرعب والهلع مرة أخرى. وتنبري شغالة أخرى فتخاطب الملك بصوت خفيض اتقاء لغضبه: يا مولاي، انشغالنا في جمع الخشب سيعطلنا عن جمع فضلات الطعام وسيؤثر بشدة على مخزوننا لفصل الشتاء. بنظرة من الملك أيضا قامت الفرقة الزرقاء بواجبها، وعندئذ انهمكت كل الشغالات في بناء السور، ولم تبد شغالة واحدة اعتراضا.

مع حلول الشتاء كان البناء قد تم، وقرر الملك الاحتفال بمأدبة عشاء فوقه، ولكنه لم يجد الطعام اللازم للمأدبة، بل لم يجد حتى الشغالات لخدمته، فقد متن جميعهن لنقص الطعام..

_ 24 _

في صباح الجمعة طلب الأستاذ شامل من أحمد ابنه أن يشتري له جريدة الأهرام، ليحجز الأستاذ شامل أربعة أماكن للأسرة كاحتفال باليوبيل الفضي لزواجه من أمه.

أحمد: جرنان إيه يا بابا، إنت عاوز تحجز إيه؟

شامل: فرقة الموسيقى العربية.

في هذه الأثناء تتوقف سامية ابنته، وهي في طريقها للحمام وتشترك في الحوار.

ساميه: موسيقى عربية ايه يا بابا، إحنا عاوزينك تمنجهنا.

شامل: يعني ايه تمنجهنا يا بنتي؟

أحمد: يعني تشهيصنا.

شامل: يعني ايه تشهيصنا يا ابني؟

سامية: يا بابا احجز لنا أحسن في حفلة سبَايْس الى حتتعمل في التجمع بكره، وعلى فكرة الحجز بيبقى أون لاين. ينظر الأستاذ شامل لابنته وكأنها تحدثه عن ألغاز، وقد تدلى فكه لأسفل فظهرت أسنانه ولسانه.

معلش عاوزه ألحق الحمام قبل الزحمة، تقول سامية، وتتركهم راكضه وهي تلوح بالمنشفة في الهواء بحركة دائرية على أنغام آخر أغنية لسبايس، وقبل وصولها للحمام تقف وتستدير للخلف ناظرة لوالدها وتمتم وهي تهز رأسها: قديم قوي.

أحمد: معلش يابابا، أنا سايب التابلت بيعمل داون لوود وعاوز ألحقه، ويغادر متمتما وهو يهز رأسه: قديم قوي.

شامل: رافعا حاجبيه لأعلى، وضاما شفتيه، وصدى قديم قوي يدوي في أذنيه، وينظر للشارع من خلال الشباك في صمت..

_ 25 _

بلغت الدكتورة مارسيل من عمرها سبعه وسبعين عاما، وانتقلت حديثا للعيش مع ابنها في شربين، ولاحظت الدكتورة مارسيل وجود مساحة خاليه أمام منزله. فاشترت شجيرة برتقال صغيره، وكان بها فرعان فقط، وبدأت في غرسها في تلك المساحة.

أثناء انشغالها بالزراعة مر بها شابان، فتخافتا هامسين، وقال أحدهما: عجبا لهذه السيدة العجوز، مالها تغرس شجيرة صغيره بنفسها، ورد الثاني: أما سألت نفسها هل ستعيش حتى تجنى ثمار هذه النبتة الصغيرة، فأول ما يمكن جنيه من هذه الشجيرة لن يكون قبل سنوات خمس على الأقل!

فتبسمت مارسيل لقولهما ضاحكه وأستمرت في زراعتها..

- 26 -

أفاق الحاج فريد مقاول الكباري الشهير بعد جراحة بسيطة، استأصل الجراح خلالها غدة متضخمة في عنقه، وكان على الحاج فريد أن ينتظر لسبعة أيام حتى يعرف نتيجة فحص الأنسجة. مرت أيامه بطيئة وكئيبة، وازداد توتره فلم يستطع العمل، ولم تعرف عيناه النوم وعافت نفسه الطعام. وكان يهاتف طبيبه يوميا مستفسرا عن النتيجة التي كانت بمثابة حكم الإعدام المنتظر.

ولشدة قلقه فقد طافت بعقله كل ذنوبه وخطاياه التي اقترفها طوال حياته، وكأنها كتاب مفتوح لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، بداية من تحرشه بالخادمات وحتى زلاته مع وردة، ولكن ماله الآن الحاج فريد لا يستطيع تبرير ما ارتكبه كما عود نفسه في الماضي؟ أهو الخوف من اقتراب الأجل؟ أم هي لحظات الضعف وصحوة الضمير؟ أم هي الرغبة الحقيقية في التوبة النصوح؟ حاول الحاج فريد التغلب على هذا الهاجس بجلوسه على حافة حمام السباحة بقصره في المريوطية، واحتسائه كأسين من الويسكي، ولكن الويسكي لم يأخذه عقله بعيدا كما اعتاد، فعقله

مازال متوهجا وأحداث حياته تنساب أمامه وتخز ضميره.

تذكر أنه قد سلب أخواته الخمس ميراثهن عن والدهن، بحيل قانونية أعانه عليها محامون ماهرون وأشرار. وكان يبرر ذلك بأن ثروة أبيه لا يجب أن تذهب إلى رجال غرباء. وتذكر أيضا أنه كان يتحايل في تنفيذ أعماله، ويساعده مهندسون فاسدون عند استلامهم لأعماله المعيبة، والرشوة كانت سبيله في ذلك، كما كانت الرشوة أيضا سبيله في إرساء العطاءات والمناقصات عليه دون غيره من المقاولين، وكان يقنع نفسه بأن عُمرة سريعة ستمحو هذه المخالفات.

كذلك تذكر سهرات الثلاثاء الأسبوعية، حيث يشاركه الحاج صبحي مقاول الخرسانة، وكانت وردة ثالثتهما والشيطان رابعهم، فيتناولون الخمر والمخدرات بأنواعها المختلفة في هذه الليالي، ويرتكبون موبقات كثيرة، وكان الحاج فريد يقول لنفسه من المؤكد أن الله سيغفر ذنوبي في الحجة القادمة.

يا رب، لماذا الآن لا أستسيغ فكرة أنك ستغفر لي، كما تعودت استساغة ذلك مع كل ذنب اقترفته في الماضي؟ وأكمل: يا رب ذنوبي كثيرة وسأقوم بعمرة الأسبوع القادم وسأسألك الغفران، ذلك ما حدث به الحاج فريد نفسه في اليوم السابع، ولأول مرة يبكى الحاج فريد، ولا يستطيع إكمال كأس الويسكي، فيسقط من يده ولا يقوى علي إيقاف استرجاع عقله لمزيد من الآثام، ولا ينقذه من هذا الألم إلا رنين التليفون، فاعتقد أن طبيبه سيخبره بنتيجة فحص الأنسجة، وفي رعب شديد وبيد مرتعشة يرد علي

التليفون، كان الحاج صبحي متصلا ويذكره بسهرة الليلة ويخبره بوجود غانية جديدة ستحرك فيه كل ساكن، لم يتفاعل الحاج فريد مع ما قاله صديقه كثيرا، حيث كان في طريقه لطبيبه. ولم يستطع الحاج فريد قياده سيارته الهامر، فطلب سائقه الخاص لتوصيله للطبيب، وبصعوبة حملته ساقاه المرتعشتان لصعود سلم العيادة، وجلس أمام طبيبه خائفا وكأن الطير فوق رأسه، وكان يتصبب عرقا، وبرزت عيناه للخارج، فكادت أنفاسه أن تتوقف، وتصل روحه للحلقوم. وعند سماعه الخبر المشؤوم خر الحاج فريد على الأرض جثة هامدة. وللأسف لم يسعفه القدر أداء حجة أو حتى أداء عمرة..

- 27 -

أكمل الخروف الصغير عامه الأول. أمضاه لاهيا ولاعبا مع أقرانه في باديه مطروح، وسعد لذلك أشد السعادة، وغمر حياته نشاط وافر ومرح مستمر، فهو تارة يرفع قدميه الأماميتين في الهواء ويحركهما بسرعه، كأنما يدعو من يرغب من الخراف الأخرى لمناطحته، وتارة أخرى يركض خروفنا بسرعه مع رفس الهواء للخلف مظهرا قوته. ولا يفوته أثناء الركض أن يدفع بقرنيه أي خروف في طريقه ملقيا إياه أرضا، مبرهنا على قوته ومتحديا من يقبل ومن لا يقبل التحدي.

وبدأ خروفنا مداعبة إحدى إناث القطيع، حيث كانت تلك الأنثى رشيقة القوام ولها خصله من الصوف مدلاه فوق عينيها، فراقه جمالها واقترب منها متوددا، وأخذ يرجع أصوات وهمسات تعرفها الخراف خاصة في تلك اللحظات، لما لها من معان ملتهبة، واستعرض أمام أنثاه قوه قرنيه بمناطحة الآخرين عل ذلك يروقها. لم يوقف التصاق الحبيبين إلا اقتراب أحد الرجال الغرباء منهما، كان ممتلىء الجسم ومرتديا جلبابا أبيضا، وبدأ بفحص الخراف واحدا تلو الآخر. ولم يستثنى خروفنا من

ذلك الفحص، ففي عنف ظاهر باعد ذلك الرجل بين شفتي خروفنا فاتحا فمه، ودقق فحص أسنانه ولسانه، ثم أمسك ظهره بقوة متحسسا حجم عضلاته، وبوحشيه مد يده أسفل ليته رافعا إياها في الهواء ثم تركها لتهوى على كفه، فارتطمت بكفه أيما ارتطام، فآلم ذلك الارتطام خروفنا كثيرا، ولكنه أسعد الرجل كثيرا. انتهى ذلك اليوم بشحن القطيع فى صندوق سيارة كبيرة والانتقال إلى أوسيم بامبابه، ومنها إلى منزل فريدة.

وجد خروفنا نفسه وحيدا فوق سطح إحدى البنايات الشاهقة، ولم يهتم به إلا فريدة، فهي ككل الأطفال مولعه بالحيوانات. وكانت ابنة الرجل الذي اشترى ذلك الخروف، وأطلقت عليه اسم شيبو، وكانت تقضى الوقت الكثير تلاعبه وترجع نداءه المتواصل: ماء، ماء، كما أعجبها جمال عينيه وهدوء حاله، وأرادت أن تقدم له ورده، فاقتربت منه قائلة في براءة: خد يا شيبو الدلدة(الوردة) دى، فما كان من شيبو إلا أن اختطف بشفتيه الوردة وازدردها بسرعة، فضحكت لذلك فريدة ضحكه عالية، تردد صداها في الفراغ المحيط بسطح البناية.

افتقد شيبو حياه البادية، واشتاق لعشبها الأخضر. كما اشتاق لأنثاه الجميلة. وفى صباح أحد الأيام استيقظ شيبو على تكبيرات يسمعها تأتيه من المسجد القريب، فلم يكترث لها كثيرا، ولكن ما أزعجه وأثار اضطرابه أنه رأى رجلا آخرا مماثلا لذلك الذي حرمه لذه الحياة في البادية ونقله لهذا المكان ليعاني بؤس الوحدة ولوعة الفراق، فوقف شيبو مذهولا مبحلقا عينيه للرجل ورافعا رأسه لأعلى، منتظرا ما يستجد، وكان ذلك

الرجل يمسك بيده أداة لم يدرك شيبو لها معنى، فقد كانت ضخمه وذات نصل طويل زاده ضوء الشمس لمعانا وبريقا. قام الرجل بالإمساك بخروف آخر فوق ذلك السطح وجز رقبته بتلك الأداة فسالت الدماء منفجرة من رقبته بغزارة، وتأجج خوف خروفنا. هم الرجل متجهما نحو خروفنا، ومعه عصبة من الصبية يتصايحون ويشيرون إلى شيبو صارخين: هو ده، هو ده. أصاب الهلع الشديد خروفنا فلم يجد بدا من الفرار، وحاول الجري في كل مكان، ولكثرة محاورة مطارديه كان يقع على الأرض فتنكسف أقدامه أسفل منه، ولكنه كان يقوم من عثراته ليواصل فراره، وكان خلال ركضه ينطح بعض هؤلاء الأشرار فيوقعهم، حتى وصل لسور السطح، وقد أحيط به، فقفز من فوق السور..

ـ 28 ـ

بعد طول افتراق بينهما، وافقت على لقائه، فقد مرت سنوات على طلاقهما، ما فتئ خلالها يحاول ويحاول. وتقابلا في محل على النيل، كما كانا يفعلان سابقا.

هو: أهلا.

هي: أزيك؟

هو: وحشاني.

هي: من قلبك؟

هو: ليه بتقولى كده؟

هي: ما أنا واخده على كده.

هو: لا خلاص ما أنا تغيرت.

هي: هنشوف.

مع حضور النادلة حاول أن يتماسك ولا ينظر إليها، فقد كانت النادلة قصيرة ومكتنزة، وترتدى زيا قصيرا وضيقا فأبرز مفاتنها، وكان كعب حذاءها عاليا، فزاد بروز مؤخرتها كثيرا.

هو: تشربي إيه؟

هي: لمون. وتصمت برهه، ما انت عارف.

هو: طبعا طبعا، وينظر للنهر متعمدا إظهار عدم اكتراثه بالنادلة شديدة الإثارة. فحاز ذلك إعجابها واعتبرته برهانا على تغير طباعه.

استمر حوارهما فاترا، يشوبه الشك والريبة كما كان دائما، ومع عودة النادلة بالليمون، لم يستطع الاستمرار في تجاهل النظر إليها، فنهش جسدها كله بعينيه. وعلى الرغم من توتر مطلقته، فقد أظهرت عدم ملاحظتها لتصرفه، وتظاهرت بانشغالها بمتابعة هاتفها. ولكنها لاحظت أنه يطيل النظر لنهدي المرأة.

في هدوء لملمت حوائجها، وانتفضت واقفة، فنظر إليها مندهشا، وتذكر بخوف انعصابها واشتدادها القديم وقراراتها المتسرعة، وقال في دهشة: إيه فيه إيه؟ خير؟

هي: لا، أبدا يا أستاذ، هي نفس الخنقة. سيادتك مركز قوى فى البص على صدر الولية، وكأن مفتاح عربية سيادتك وقع في صدرها، إنت مش واخد بالك يا حضرت ولا إيه؟ سلام. وتركته مغادرة في غير أسف، محدثة نفسها وهي تطحن أسنانها بعنف، ناظرة إليه باحتقار، وتقول بحرقة دون أن تباعد بين فكيها: ديل الكلب..

- 29 -

قرر الدكتور ميشيل عبدالمسيح العودة لمصر بعد أربعين عاما قضاها في فرنسا، ذاعت خلالها شهرته هناك، فقد كان من أشهر جراحيها، ولكنه أراد أن يشيد صرحا طبيا كبيرا لخدمة الفقراء بالمجان في مصر، على غرار ما فعل الدكتور مجدي يعقوب في أسوان. وقد استشار أحد كهنة الكنيسة التي يرتادها في مونتيبليه، فنصحه بذلك.

وفي أول أيام عودته مصر لدراسة قراره، وأثناء قيادته لسيارته بالقاهرة، شاهد سيارة مسرعة تصدم شابا أثناء عبوره الطريق، وشاهد فرار سائق هذه السيارة دونما توقف. توقف الدكتور ميشيل وأسرع لإنقاذ الشاب الذي ارتطم بعامود الإنارة بوسط الطريق، بعد فحصه السريع للضحية قرر الدكتور ميشيل البدء في إجراء ضغطات الصدر السريعة، حيث أنه لم يكن هناك أثر لنبض أو حركة تنفس في ذلك الشاب، وطلب من المتجمعين حوله الاتصال بالإسعاف ليحضر بسرعة. بعد مرور نصف الساعة، وبعد إجهاد الدكتور ميشيل أيما إجهاد، عاد نشاط القلب والتنفس لذلك الشاب المسكين، ولكن للأسف لم يحضر أي مسعف، فقرر الدكتور ميشيل نقل

الشاب المسكين بسيارته لمستشفى الدمرداش القريب، لاستكمال علاجه وخاصة مع توقعه احتمال وجود نزف دموي داخلي.

في استقبال الدمرداش حاول الدكتور ميشيل الانصراف بعد تسليم المصاب للمستشفى، فلم يُسمح له وانتظر كما طُلب منه، ولكنه جن جنونه لما راي من بلادة ولا مبالاة في كل من تعامل معهم، بدءا من حامد معاون الاستقبال، الذي اهتم بأخذ بيانات الدكتور ميشيل والاحتفاظ ببطاقة رقمه القومي أكثر من إدخال المريض بسرعة لغرفة الفحص والبدء في علاجه، كما رفض حامد انصراف الدكتور ميشيل. ثم راضية الممرضة التي لم تسارع في تحديد العلامات الحيوية الأزمة للمصاب كإجراء أولي للبدء في العلاج، وانهمكت في متابعة تعليقات زميلاتها على هاتفها، ولكنها طلبت في برود من شاكر التومرجي الذهاب لإبلاغ الدكتور قانع ليحضر من سكن الأطباء، فاعترض شاكر متعللا بأنه في بداية التهامه سندوتش الفول الذي كلفه شراؤه خمس جنيهات كاملة، وعلى الجميع أن ينتظر، وكان له مأ أراد فلم يتحرك إلا بعد انقضاء دقائق خمس، بل وتناول كيسا من عصير القصب، كان قد اشتراه قبيل حضوره للمستشفى. أما الدكتور قانع فقد رد على مستدعيه شاكر بأن عليه الانتظار، فهو قد شغل نفسه انشغالا كبيرا في متابعة إعادة أهداف مباراة الأمس بين ناديي الأهلي والزمالك. وبعد مرور نصف الساعة لم يحضر الطبيب، ولكن من حضر كان أمين الشرطة شريف، الذي بدأ في عمل المحضر لميشيل متهما إياه بالتسبب في الحادث. عبثا حاول الدكتور ميشيل درء الشبهة عن نفسه، وطالب بالإسراع أولا

في إسعاف المصاب، ولكن هذا الطلب لم يعد له داع، فقد توفي الشاب المسكين.

وجد الدكتور ميشيل نفسه مكبل اليدين، داخل قسم الوايلي بعد أن أصبح متهما بالقتل، وأكمل ليلته في غرفة الحجز، محاطا بأناس لم يتخيل أبد أن يتعامل معهم. وفي أثناء انتظاره لترحيله للنيابة استمع للضابط نزيه وهو يحاور الأمين شريف.

الضابط نزيه: إيه؟

الأمين شريف: لا يا باشا ده قفل قوي.

الضابط نزيه: ستف المحضر كويس يا شريف ورحله على النيابة دلوقت.

الأمين شريف: حاضر يا فندم، محضر ما يخرش المية.

في خلال أيام قليلة، عرض فيها الدكتور ميشيل على النيابة، التي وجهت له تهمة القتل الخطأ، ثم حضر محاكمة سريعة من عادل، أحد القضاة الشامخين، فلم يكترث بأقوال الدكتور ميشيل، واعتمد فقط علي محضر الشرطة، وحكم علي الدكتور ميشيل بالسجن لسبع سنوات.

مازال حامد وشاكر وراضية وقانع مستمتعين وراضيين ببؤس حياتهم، ويهدرون أوقاتهم فيما لا طائل منه، وفي اعتقادهم أنهم مفيدون. ومازال شريف ونزيه وعادل يمارسون وظائفهم، ويتمتعون بالفساد والاستثناءات. أما الدكتور ميشيل عبد المسيح فقد رُحِّلَ إلى السجن لتنفيذ العقوبة ووصله استفسار من مونتيبليه عن سبب تأخره في العودة لفرنسا..

30

الأستاذ عبد الباقي رئيس التحرير بمجلة الأفكار، ثقيل الظل وثقيل الوزن، مقطب الوجه، لغد الرقبة، أصفر الأسنان. وعلى الرغم من زواجه فهو يبصبص للنساء كثيرا. أما راوية فهي صغيرة السن ورشيقة وجميلة، تخرجت فى كلية الإعلام منذ عام، ولها آمال عريضة في أن تصبح صحفية ناجحة ومرموقة، تخطت اختبارات كثيرة للتعيين بمجلة الأفكار، وكان آخرها المقابلة الشخصية والتي اجتازتها في حضور الأستاذ عبد الباقي.

استدعى الأستاذ عبد الباقي راوية، وعنفها بشدة وفظاظة وبصوت غليظ صرخ فيها: إيه القرف ده؟

ردت راوية في خوف: خير يا أستاذ؟

صاح في ضجة وجلبة ولعابه يتناثر من فمه في كل اتجاه: خير إيه وزفت إيه؟ دي مقالة دي؟

وبصعوبة بالغة ومشقة كبيرة استطاعت راوية تمييز بعض كلماته. فقد أصابها رعب شديد، ولملمت نفسها وأجابت في توتر كاد أن يرديَها: والله يا أستاذ أنا حاولت أغطى الموضوع بقدر الإمكان.

زاد هياج الأستاذ عبد الباقي وصرخ: واضح جدا إن أيامك في الأفكار قليلة. ثم ألقي بأوراق مقالتها في الهواء، حتى ارتطمت بالمصباح المُتَدَلِّي في سقف الحجرة فتَكَسّر المصباح وأحدث ومضات سريعة ومتقطعة، كان لها أصوات عالية ارتعبت لها راوية، وهبطت الأوراق على الأرض متناثرات ومتفرقات، ومع هبوطها البطيء انقبض قلب راوية، ومع شدة الخوف والهلع اللذين تملكاها أحست بغصة في حلقها مع ذلة وانكسار. وتمنت أن تنشق الأرض وتبتلع ذلك المخلوق العجيب أو تبتلعها هي حتى تنقذها مما تكابد وتقاسى من خوف وألم.

ولكنها كانت تعلم سر التحول المفاجئ لهذا المخلوق ليصير كالحيوان الهائج. فقد راودها الأستاذ عبد الباقي بالأمس على تناول الغداء معه في كازينو العشاق، ورفضت..

- 31 -

وصلتها أخبار زوجها الدكتور كارم، فقد تزوج من ممرضة تعمل معه بمستوصف الشفاء في الطائف. جن جنونها وطار عقلها، وقالت لنفسها: الخاين الجبان ما طمرتش فيه العشرة، ده اللي ضيعت عمري عليه، طب والله لأوريك يا كارم، وسيطرت عليها رغبة الانتقام السريع. ونسيت أبناءها الذين التحقوا جميعهم بالجامعة. وفى الحال تواصلت مع رجل على مواقع التواصل الاجتماعي، وما أكثرهم.

ولشدة توترها واضطرابها لم تدرك من قابلت في الطريق ولا من رآها في المصعد، ولم يكن ذلك ليشغل بالها، وفي شقته قابلها سمير بأحضان دافئة، وغمرها بقبلات وأشياء أخرى إستمرأتها وانتشت لها. وبعد انتهاء تلك الفورة وهدوء ثورتها جلست وأشعلت سيجارتها وأحست براحة لفعلتها.

في تلك الليلة لم يدر بخلدها طيف كارم، أو طيف أبنائها، ولم يساورها تأنيب ضمير، كما أنها لم تسع إلى شبق أو شهوة، فقط ابتغت ما اعتقدت أنه انتقام..

ـ 32 ـ

تم زفافهما إلى غرفتهما بالفندق الشهير بالقاهرة، وهناك لم يجد ما توقعه، فاعترفت له بعلاقة قديمة فقدت خلالها ما انتظر وجوده. وأبدت ندمها مصرحة بأنها كانت المرة الوحيدة، وقضت الليل في نحيب متواصل، رق له قلبه، وفى الصباح خيرته ما بين الصفح والعفو أو الطلاق، وعلى الرغم من حزنه سامحها وأبقاها على وعد منها بالإخلاص والوفاء له.

كان عمله في نجع حمادي وكانت تشعره بالحب والحنان طوال الخمسة أيام التي كانت تراه فيها كل شهر. وتناهى إليه استقبالها لرجال بمنزلهما أثناء غيابه، حزن لذلك مرة أخرى وقرر العودة المفاجئة على غير موعد، ولدى وصوله تسلل بخفة، ولم يجد أحدا في بهو المنزل، فناداها بصوت عال، وهنا سمع أصوات مفاجئة لارتطام بغرفة نومه. هرول للغرفة وفتحها، فوجد ما توقعه، رجلا عاريا يلملم أشياءه ويقفز من النافذة طالبا الفرار، وزوجته عارية أيضا وقد بهتت على سريرها وجحظت عيناها وهي تنظر إليه، وفغر فاها وعقد لسانها. ترك الزوجُ الرجلَ ليفر سالما، فهو لم يكن قوى الجسم ليصارعه، كما أن ما رآه قد أوقف تفكيره وأبطل جهده.

تمالكت الزوجة نفسها وارتدت قميصها، وأخذت في البكاء والنحيب، وتضرعت إليه ليرفق بها، ووعدته أن تكون سقطتها الأخيرة. طلب منها إمهاله بعض الوقت ليتدبر أمره، وذهب للمطبخ لتناول العشاء، لم ينل طعاما واستغرق وقتا طويلا في تدبر حاله، وعزم على الصفح، فذلك طبعه، وتلك رقة قلبه، لولا أنه استرق السمع إلى زوجته وهي تهاتف شخصا بصوت خافت، وكان عين الرجل الذي فر لتوه.

الزوجة وهي تكتم ضحكتها: طلع أهبل، مش قلتلك ما تخفش سكون وهي تصغى للرد

الزوجة في دلال: بكره يسافر، أصلها مش أجازته سكون وهي تصغى للرد

الزوجة: لا. لا أنا هتصل بيك يا حبيبي اول الجو ما يروق، مع السلامة

الزوجة رافعه صوتها وفاتحه باب غرفة النوم منادية زوجها في غنج: أنت فين يا حبيبي تعالى بقي إنت واحشنى قوى. تعالى ده أنا هنسيك الدنيا الليلة.

الزوج متوجها لغرفة النوم متخاذلا ومنهارا وعاقدا ذراعيه وراء ظهره: أنا جاي اهوه يا روحي..

الزوجة وقد تعطرت وتزينت وارتدت قميصها الأزرق الذي يحبه زوجها: حبيبي دي وزة شيطان ومش هتتكرر.

احتضنته وأحاطته بذراعيها، وغمرته بقبلات ساخنه على رقبته وفوق خديه، ولكنه لم يتجاوب، ارتابت وتحيرت وخاطبته: إيه يا حبيبي مش

تحضني وتبوسني؟

الزوج في هدوء وانكسار: أبدا يا حبيبتي، ويحيطها بذراعيه، وفى نفس الوقت يغمد سكين المطبخ في ظهرها. شهقت زوجته وحشرجت في الحال، ولم يدعها تهوى، بل ظل يحتضنها، وبهدوء ولطف نزل بها إلى الأرض وهو يقبلها. فقد كان يعشقها..

ـ 33 ـ

لا يدري ما الذي دفعه لإمعان النظر والتأمل في الماضي البعيد. لعله حلول الثالث والعشرين من يوليو، ولعله بلوغه من العمر ما يسمح له بتقليب أموره دون إلزام تفكيره بعبء الانشغال أو الالتزام بما كان يصله آنذاك من وسائل الإعلام والصحافة طوال اليوم والليلة. حيث كانت يفرض على الشعب ما يجب أن يقول وكيف يجب أن يفكر، والويل كل الويل لمن يحيد. فأصبح ذلك نقشا محفورا في عقله حتى وقت قريب. إنه لا يأبه الآن بتوصيفها ثورة أو انقلاب، ولا يمجد أو يحقر الأحداث التي أثرت ومازالت تؤثر حتى اليوم في بلاده. فذلك تاريخ لا ناقة له فيه ولا جمل حتى يقيمه، وإن كان مقتنعا بأن التاريخ فى النهاية لا يذكر إلا ما أتى به رجاله من مصائب، فالتاريخ لا يذكر ليوليوس قيصر تقويته لإمبراطوريته فى ذلك الوقت ولكنه يذكر حرقه لروما ثم ما أصابه من مقتل على يد رجاله، والتاريخ لا يذكر أيضا كيف وحد ذلك النمساوي ألمانيا وبعث في الألمان روح القوة والتحدي، وأقامهم من عثرة هزيمتهم، ولكنه يذكر فقط أنه كن سببا فى دمار العالم لسنوت طوال، وبسبب جنونه فقد قتل أربعون

مليون إنسان. كما يذكر التاريخ أيضا أنه مات منتحرا.

هداه تأمله لندم كبير لعدم إدراكه في ذلك الوقت أنه كان مخدوعا في الزعيم، ذلك الرجل الذى كان في صغره يرسمه في صور ويغطى بها جدران شقته، ولم يفهم وقتها معنى ابتسامة والديه الاستنكارية لما يرسمه ويعلقه، ولم يفهم وقتها أيضا لماذا يخافت والده صوته عند تبادل النكات مع عمه حول ذلك الرجل، ولم يفهم وقتها لماذا تم القبض على أحد أقربائه لمجرد مجاورته في المسكن لأحد الشيوعيين، ولم يفهم وقتها لماذا تيتم كثير من أبناء جيرانهم وترملت زوجاتهم، لموت آبائهم وأزواجهن في المعتقلات، ولم يفهم وقتها لماذا كان سعيدا وتدمع عيناه لمشاهدة رجال الجيش المصري في التلفاز وهم ذاهبون لليمن لقتل إخوانهم العرب المسلمين. كما لم يفهم أيضا لماذا كان سعيدا ويرجع الأغاني التى يذيعها المذياع عند رجوع نفس رجال الجيش من اليمن. فكانت الأغاني تردد: يا حبايب بالسلامة، رحتم ورجعتولنا بألف سلامة. لم يفهم فيم ذهبوا وفيم عادوا، ولم يفهم لماذا كان سعيدا بفوز الزعيم فى الاستفتاءات بنسب الخمس تسعات وترديده أغاني الزعيم فرحا وانتشاء: ناصر كلنا بنحبك، ناصر وهنفضل جنبك. ولم يفهم لماذا شحن الزعيم جيشه لسيناء دون أية حماية ليلقى ما لقى من عدوه، ولم يفهم أشياء عديدة أخرى، لا طائل من استرجاعها وذكرها إلا الندم والحزن.

الآن وبعد أن بلغ من العمر أرذله قد فهم..

- 34 -

اكتظ الطريق بالسيارات، وتوقفت سيارة سباق بك كغيرها من سيارات العامة، ولم يستطع الأسطى مدبولي الإتيان بحل، اقترح الأسطى مدبولي على سباق بك الاتصال بالمليجي باشا ليرسل قوة لتفسح الطريق، وكاد سباق بك أن يفعل لولا ملاحظته لمنعطف ضيق لا تسلكه سيارة واحدة. فأمر مدبولي بالانعطاف والدخول في هذا الطريق الضيق، استدار الأسطى مدبولي خائفا ومواجها سباق بك، وقد اصفر وجهه وانعقد لسانه، وبصعوبة تهته قائلا، هنا يا بيه؟ أشار سباق بك برأسه للأمام وهو يشعل سيجاره الكوبي فانصاع السائق. فكلاهما يعرف إلى أين يؤدى هذا الطريق، ويعرف أيضا خطورة الدخول هذه المنطقة. كان سباق على دراية جيدة بهذه المنطقة، ففيها ولد، وفي مدارسها تعلم، ومنها كان يذهب يوميا للجامعة بعد أن يقطع مسافة طويلة مشيا على قدميه ليصل لشارع الترام، وكان ينشب ويستمسك بجانب الترام وجسمه كله معلق خارجه. كان يفعل ذلك بحجة الزحام وعدم وجود مكان بالداخل، ولكن العلة الحقيقية لفعلته كانت عدم امتلاكه ثمن تذكرة الترام، فعادة لا يطالب المحصل

المعلقين خارج الترام بدفع تذكرة، فيكفيهم ما هم فيه من هم وخطر.

كانت حواري المنطقة ضيقة وبالكاد تسمح لسيارة سباق بك الكابريس بالمرور، وفي بعض الأحيان يضطر الجالسون على جانبي الطرق أن يهبوا واقفين لإفساح الطريق للسيارة فتمر، وكانت المباني لا ترتفع عن طابقين على الأكثر، وكلها بطوبها الأحمر، وبدون طلاء، ويكسوها غسيل منشور، وكأن ذلك اليوم في تلك المنطقة قد خصص للغسيل. وكانت الضوضاء تعم الحواري، فما بين قهاوي بها زبائن يتصايحون، وورش للمكابس والمطارق تصدر ضوضاء شديدة، وأطفال لا يعرفون للعب معني إلا إذا اختلط لعبهم بالصياح والسباب، ونساء يطللن من النوافذ ويتصايحن أيضا بشتائم لبعضهن البعض أو بنداء على أزواجهن في ورشهم، ومن وقت لآخر تستمع أيضا لرجل يؤدب زوجته ويضربها، فلا يفوتك أيضا تفاعلها بصراخ طويل ودعوات بقصف العمر.

أمر سباق بك الأسطى مدبولي بالتوقف أمام إحدى القهاوي، وترجل سباق بك إلى داخل القهوة مع اندهاش الأسطى مدبولي الذي انتفض مسرعا خارج السيارة وأحاط بالبك ليحميه من الدهماء الذين تجمعوا حوله واختطفوا سيجاره وبدأوا تحرشهم. في الحال وبصوت عال طلب سباق بك دسوقي القهوجي، فتراجع المتحلقون. كان سباق ودسوقي زميلان في مدرسة الجبل الابتدائية، عرفه دسوقي، ودار بينهما حوار تخللته ضحكات لما استطاعا تذكره، فقد مرت سنون طويلة

وقال سباق وقد تنازل عن كبره وتواضع كثيرا: لسه في القهوة يا دسوقي

دسوقي وقد انحنى ظهره لشدة حياته حتى لامست ذقنه صدره يقول: هاروح فين يا بيه. أكل العيش بقي، وابقاق كتيره مفتوحة

سباق وقد أشعل سيجاره الثاني و يقول: وازي الأحوال دلوقت

دسوقي بصوت به لدغة بسيطة وهو ينظر للسماء كمن يطلب الرحمة يقول: والله يا بيه قالو لنا استحملوا، وادينا مستحملين.

استمر حوارهما بعض الوقت، تناول خلاله سباق بك الشاى ثم استقل سيارته وانصرف، فقد كان مشغولا بتدبير قرض جديد، ليسدد به قروضه القديمة..

ـ 35 ـ

اعتاد زيارتَه لسنواتٍ في بيت المسنين صباحَ كلِ ثلاثاء، ليقضى اليومَ كلَه معه، محضرا الفاكهة والحلوى التي يحبها، وكان يجلس أمامه، يحادثه ناظرا إليه، محتضنا يدَه بكفيه، يمسحها برقة وعطف وحنان، كأنه يقول آسف يا أبت، لعلك تحس مدى حبي وامتناني لك، ومدى ألمي وحزني الشديد لما ألم بك. فقد أصابت الدكتور عبد الغفار سكتة دماغية تركته في شلل تمكن من نصفِه وعقدَ لسانَه. وأصبح الدكتور عبد الغفار غير مدركٍ لكثير مما يقع من أحداث وأقوال، يقضى أيامه ولياليه صامتا، ناظرا أمامه نظرة باهتة، ووجهه جامد وصامت دونما تعبير عن اضطراب أو خلجة، ولا تحيد عيناه لشيء حوله مهما عظم أو اشتد. كان الدكتور سامح عبد الغفار ابنه الوحيد، وكان يحاول جذب انتباه والده بأشياءَ شتى حتى يسرى ويهون عليه ولكن هيهات، فوالده لا يغير نظرته البائسة، وذلك ما آلم سامحاً كثيرا. فتارة يريه سامحُ ساعتَه الجديدة ويأخذ بيده طالبا منه تحسُسَها ومشاهدتَها، ويحكي له عن ظروف شرائها وبكم اشتراها، محاولا إثارة فضوله، يفعل الوالدُ ما يريده ابنه، دون انفعال لما يقول، فيحزن سامح. وتارة يخبره سامح

أن ترامب قد أصبح رئيسا لأمريكا على غيرِ المتوقع، وهو يعلم أن والدَه كان يولي السياسةَ اهتماما، فلا يستقبل سامح من والده ما يريد ويتوقع، فيزدادُ حزنُ سامح وقهرُه.

كان الدكتور عبد الغفار من أشهر الجراحين، وكان أستاذا جامعيا، وكانت له عملياتٌ جراحيةٌ باسمه وكتبٌ يراجعها دارسو الطب، وكان شعلةً من النشاط، يحاضر في أشهر المؤتمراتِ الدولية ويشار إليه بالبنان، ولكن تلك الجلطة اللعينة أصابته بعد وفاة زوجته فجعلت منه شيئا آخر.

في إحدى زياراته لوالده قرر سامح اصطحابَه لنزهة بسيارته، ولم ينس طاقمَ أسنانِ والدِه فأخذَه معه. حادثه كثيرا أثناء القيادة ولكن سامح لم يتلق إلا نفس الصمت والشرود، حاول سامح التغلب على ما يعتصر قلبه من ألم فتوقف أمام أحد محلات الكباب التي كان والده يذهب إليها، واحضر له ساندويتش الطرب الذي يحبه. تناول عبد الغفار الساندويتش غير مبدٍ لاكتراث بما فعل سامح، ثم عرجا إلى محل لعصير القصب، كان والده يحبه أيضا، وسامح يرقب والده ولسان حاله يقول أرجوك اظهر لمحة انفعال أو تغير، أرجوك لا تتركني لعذاب أكثر، ولكن هيهات، فقد شرب عبد الغفار الكوب كله وهو في غفلة عمن حوله. طفرت الدموع من عيني سامح، فأدار وجهه عن والده، مخفيا انفعاله، وازداد حزنه فهو كظيم، بل أصبح يحس بكآبة أبيه وقد انعكست عليه..

- 36 -

كانت لهفتُها كل صباح لرؤياه لا توصف، وهو كذلك كان يتشوق ليراها. وكان لقاؤهما في محطة التَرام أثناء ذهابهما للجامعة، حتى زارها في منزلها بصحبة الحاجة وخطبها. عاشت مع محمد في سعادة بالغة وغمرها بحبه، وقضى لها كل ما تمنته، وهي كذلك غمرته بحبها وحنانها، فظنت أنها حازت سعادة العالم كلها. وكانت قمة سعادتهما يوم زواج ابنيهما في ليلة واحدة. ولكنها كانت دائما ما تخشى السعادة المفرطة لاعتقادها أن حزنا كبيرا سيتلوها. وتحقق ما كانت تهابه وتخشاه، فقد مرض زوجها وتوفاه الله. حزنت لوفاة زوجها حزنا شديدا، وكانت تبكيه لساعات طوال كل ليلة، واعتقدت أن بوفاة زوجها الحبيب محمد قد انتهت حياتها، وأن عليها انتظار الموت في أي لحظة.

كان اجترارُها لشريط ذكرياتها يرهقُها أشدَ الإرهاق ويتعبها كلَ التعب، حتى تقدم جارُها محمود للزواج منها. صارحها بحبه القديم لها، وكيف أنه ومنذ سنوات طوال كان على وشك أن يطلبها للزواج، لولا أن محمداً قد سبقه، وكيف أنه رغب عن الزواج بعد ارتباطها بالمرحوم،

وأنه لم يستسغ فكرة الارتباط بغير حبيبته التي ملكت فؤاده وكل جوارحه، وأوضح لها أن فترة كافية قد انقضت على وفاة زوجها وآن لها أن تفكر في عرضه، لأن حبه الذي لم تخبو شعلته قد زاد توهجا، ووعدها أشياءَ كثيرةً وجميلة سينعمان بها ومستقبلا ورديا سيعيشانه. زلزلت زلزالاً شديدا بذاك الطلب، ولكن محمود وإلحاحه جعلاها تتمعن في تفكيرها، وعاشت صراعا كبيرا ما بين الوفاء لمحمد وذكريات حبهما الجامح الذي جمعهما، وبين ما ينتظرها من حب جديد مع محمود الذي ضحى أحلى سنوات عمره من أجلها. وقد استعذبت رقَة تعامله وصبرَه في إقناعِها، كما أعجبها كلامَه الرشيق وعاطفتَه الجياشة، فاستساغت الفكرةَ وتقبلتها، وتساءلت لماذا أقضي على نفسي بالموت، وأرفض ما ينتظرني مع محمود الذي يحبني كل هذا الحب؟ كثيرون من معارفها وأصدقائها أبدوا اعتراضهم، وكثيرون أيضاً قالوا هذه نقرة وتلك أخرى، وضمنا تعنى الموافقة..

- 37 -

ماجد وعزمي صديقان لا يفترقان، شبا ونميا في حي واحد، درسا في نفس المدارس، والتحقا بكلية الهندسة معاً. يدرك كل منهما ما يفكر فيه الآخر، ولا يكتم أحدهما سرا عن صديقه، وكانا يبدوان كأَخَين. وكانت هندٌ زميلتُهما سمراءَ وملفوفة القوام، سوداء الشعر والعينين، ولها ابتسامة لا تفارقها. أعجب بها ماجد وتقرب منها، ومع مرور الوقت أحبها وقرر أن يصارحها بحبه، فماجد كان من المتفوقين وواعد المستقبل، ولكنه لم يكن معسول الكلام، ولا يتقن التعبير عن نفسه بالكلمات التي تهواها الفتيات، فلم تتسرع هند في مبادلته نفس إحساسه.

ذاع في الكلية ذات يوم أن عزمي قد خطب هندا، فوالد عزمي يمتلك شركة هندسية كبرى، ورأت هند فرصة سانحة لها للعمل بهذه الشركة حال زواجها من عزمي. وكان عزمي يحسن كلام المحبين، فتقرب لهند بكلامه المنمق. وكان يعرف رغبة صديقه ماجد في الارتباط بهند، فتجاهل تلك المعرفة وتزوجها. حدث ذلك منذ أربعين عاما وما زال الصديقان متخاصمين..

ـ 38 ـ

التحقت الدكتورة مروة بمستشفى المعادى العسكرى للعمل كطبيبه مكلفه حيث كانت آمالها عريضة، فهنالك ستجد العريس المناسب. هكذا صور لها خيالها المتعطش للزواج. وتعينت فى قسم الباطنة مع اللواء طبيب يسرى مرزوق. وكان رجلا وسيما، ممشوق القوام وممسوح البطن، صبغ شعره باللون الأسود وترك شعيرات قليلة بيضاء أمام أذنيه، فأضفت عليه جمالا تنجذب إليه النساء. عمل سابقا بلندن ويمتلك الآن عيادة شهيرة بوسط القاهرة، هذا إذن هو العريس المثال، خاصة وأن مروة قد تعدت الثانية والأربعين. وكان العيب الوحيد فى سيادة اللواء يسرى أنه متزوج وله بنتان تدرسان بالجامعة. ولكن مروة قالت لنفسها في حسرة بعد أن يئست وفقدت الأمل: مش مهم بقي، يا روح ما بعدك روح.

بدأت خطتها بإعادة فتح الزرارين العلويين للبالطو الأبيض، وكذا للقميص الأحمر تحته، ثم عمل الشاى للدكتور يسرى، وتقديمه في دلال، مع ابتسامة ساحرة وانحناءه بسيطة أظهرت خلال انفراج القميص

أشياء جميله لم يغيرها الزمن بعد. ومن فوق نظارته رنا الدكتور يسري إلى المساحة البيضاء المكشوفة أمامه، وإلى الفالق الواضح بين نهديها المستديرين والمثيرين، وهم بكثير ولكنه تمالك نفسه ثم تنحنح بشدة وابتعد، موبخا نفسه ومتمتما، لا يصح أبدا ما نويته يا يسري، فهى وإن كانت أنثى شديدة الإثارة فأنا رجل وقور.

لم تيأس مروة فطورت خطتها إلى الحديث بغنج ونعومة، مع إلقاء بعض النكات ذات الإيحاءات الجنسية وإطلاق الضحكات الرنانة والمثيرة، والتمايل في حنان عند المرور أمام الفريسة، وهي خطة قديمة تعرفها كل أنثى، وتعرف أيضا علامات نجاحها التي بدت واضحة على هذا الفهد الجريح، فعند تقديمها للشاي أدنى سيادة اللواء خده ليجاور خدها، ولامسه، ثم أمسك يديها بحنان مع الفنجان وهو ينظر إليها نظرة المتحير المشتاق، لشدة حبه ولهفته، عندها تصنعت الدكتورة مروة انتفاضة وابتعدت قائلة في حده لا يا يسرى، فى الحلال، ومع سقوط الفنجان إلى الأرض ودخول الجندي المراسلة إلى الغرفة على صوت الارتطام أفاق يسري، وقال: في الحلال طبعا. ولم توافق زوجة الدكتور يسرى على زواجه بأخرى وطلبت الانفصال. وراقت للدكتور يسري الفكرة فطلق زوجته، وكانت زوجته في السنوات الأخيرة قد زاد وزنها وقل كلامها، وضنت عليه بمشاعر الحب الذي ما زال يبتغيه. فاتخذ هذه الزيجة جسرا لتجديد شبابه. وأخيرا آن للدكتورة مروة أن تتزوج، ولكن زوجها عند ذلك الحين كان قد شارف على الستين.

بعد حفله زفاف أسطورية بالقاهرة سافر العروسان إلى باريس لقضاء شهر العسل، وكانت إقامتهما بفندق الريتز الشهير، وبمجرد دخولهما إلى غرفتهما لاحظت مروة من طرف خفي أن زوجها يتناول حبة زرقاء، فأدارت وجهها للجهة الأخرى من الغرفة ونظرت للحائط، وقد اغرورقت عيناها بالدموع وتمتمت قائلة، يا بختك الأسود يا مروة..

39

يعرف الشاويش على بحسه وخبرته منْ منَ المفرج عنهم من المساجين سيعود إليه ومن منهم لن يعود. المليان قد بلغ الخامسة والعشرين وأصبح له طفلة صغيرة، وسبق سجنه مرتين في قضيتي اتجار، وقد عقد عزمه فعلا على التوبة والعمل الشريف من أجل ابنته ميار. أما نحتاية فاعتاد النشل واستمرأه وأصبح جزءًا من شخصيته ولن يحيد عنه. ومحروس حرامي العجل قد تعرف على المعلم دنجل وانضم لعصابته وهو بالسجن، وبلا شك سيعاون محروس معلمه الجديد في سرقة المنازل، كتطور منتظر لأصول المهنة. المليان ونحتاية ومحروس أفرج عنهم جميعا اليوم.

بعد عدة أشهر لم يعد المليان للسجن فقد تاب فعلا وعمل حارسا لأحد الجراجات. ونحتاية مازال مهتما بجيوب الموظفين، وخاصة عند بدايات الشهور، ومازال بعد حرا طليقا، ولكن عودته للسجن متوقعة في أي وقت. أما محروس فقد عاد بسرعة إلى جوار معلمه بالسجن، ففي أول عملية مع عصابة دنجل، نبحت كلاب الحراسة وكشفت محروسا، فهو مازال جاهلا بأمور سرقة الفلل، ومازال يحتاج بعض الخبرة والتدريب ولذلك عاد للسجن سريعا كما توقع الشاويش على..

_ 40 _

تصرخ ساره باكية كل ليلة منذ أسقط زوجها رامي بطيخة على الأرض فانكسرت، وتحولت حياتها إلى بكاء مستمر، وخاصة إذا ذُكر البطيخ أمامها أو رأت بطيخة فتنفعل باكية وصارخة. وأثر ذلك بشكل كبير على حياتهما، فتقضى سارة ساعات طوال كل ليلة في بكاء ونواح، ولا يستطيع رامي النوم مما أثر على عمله. حاول رامي الاعتذار لسارة ولم يفلح، واشتري لها بطيخة أخرى فكانت سارة تنهار وتسوء حالتها لمجرد رؤية البطيخة.

لجأ رامى للدكتور نبيه أخصائي الأمراض النفسية في محاولة لإيجاد حل.

رامي: يا دكتور حياتي بقت جحيم، عياط عياط عياط على طول.

دكتور نبيه هارشا جانب رأسه وماسحا ذقنه مجيبا بصوت عميق: دي عقدة البطيخة يا أستاذ. بتيجي للستات لما بطيخة تقع وتتكسر أقدامهم.

رامي متعجبا: ودي حالة نادرة يا دكتور.

دكتور نبيه وقد جحظت عيناه وحدق في وجه رامي: أبدا، عقدة البطيخة بتصيب ستات كتير وبالذات في الصيف.

رامي: والحل يا دكتور؟

دكتور نبيه وقد عاد بكرسيه للخلف ونظر لسقف الغرفة وكأنه يخاطب

أشباحا يقيمون بسقف الغرفة: عقدة البطيخة لها حل من اتنين، الأول إن مراتك تغطس في حمام سباحة مليان بطيخ مكسر لمدة خمس ساعات.

رامي متعجبا ومقاطعا الطبيب: حمام سباحة مليان بطيخ إزاي يا دكتور؟ ده ولا خمسين عربية بطيخ يملوه، والبطيخة الواحدة دلوقت بستين جنيه.

دكتور نبيه برفق: ما أنا عشان كده أفضل الحل التاني.

رامي بلهفة: ايه هوة يا دكتور أرجوك قول بسرعة

دكتور نبيه في هدوء: ما اانا جايلك أهه، ويصمت لبرهه ثم يعاود الكلام: تآخد مراتك وترح حتة مافيهاش بطيخ لمدة أسبوع، وكده عقدتها تتفك. بس اوعى تشوف بطيخة أو حد يجيبلها سيرة البطيخ.

لحسن حظ رامي أن الوقت كان شتاء، والبطيخ نادر الوجود في الشتاء، فاصطحب سارة لقضاء أسبوع في باريس، ومرت الخطة الموضوعة بنجاح، فلم تر بطيخة واحدة، حتى أنه كان يُغيرُ على مطبخ الفندق والمطاعم التي يزورانها ويتخلص من كل البطيخ الذي قد يقدم لهما. وفي آخر ليلة وأثناء احتفاله بشفاء سارة فاجأته بصراخها وبكائها، فقفز من كرسيه مستفسرا: إيه يا حبيبتي فيه إيه.

فصرخت سارة واستكملت بكاءها وهي تمد ذراعها وتشير لرامي لينظر خلفه: بص وراك بص وراك.

تكهرب رامي وتساءل وهو يستدير للخلف فيه إيه، فيه إيه؟

سارة وهي منهارة: راجل أقرع..

_ 41 _

إعلان على الفيس بوك: محتاجة جدا شاب يقابلني قدام قهوة علي بابا في بولاق أبو العلا بعد ساعة

ارتدى ملابسه بسرعة واستأجر أوبر ووصل في الموعد، ولكنه فوجئ بخمسة رجال قد أحاطوا به، ومع تهديدهم بسكين سلمهم حافظة نقوده وساعته وهاتفه..

- 42 -

عندما بلغ الخمسين قرر تنفيذ فكرة قديمة كانت تلح عليه باستمرار منذ صغره، فقد كان دائم التساؤل عن كيفية تعامل الكفيف مع غيره، وكيف تكون حياته بدون البصر؟ وتساؤلات أخرى كثيرة، فقرر وضع لاصق أسود على عينيه، ولمدة ثلاثة أيام، دون كشف عينيه أو استخدامهما. وقام بإجازة من عمله خلال هذه الأيام الثلاثة. وتخيل نفسه كفيفا وبدأ التجربة.

تعجبت زوجته لهذه الفكرة الغريبة، وخاصة وأن اليوم هو يوم الخميس، فبادرته مستفسرة: ويا ترى يا أبو سيد هتشوف إزاي؟ ثم ضحكت فاهتزت كل أعضائها المتدلية، وأردفت: ما انت أصلك بتحب تتفرج. لم يجبها وتمتم في نفسه وبحسرة: يا وليه فرجة إيه، الكلام ده كان من تلاتين سنة. ومع الممارسة وجد أنه ليس هناك فارق كبير في هذه العلاقة إن كان مبصرا أم كفيفا، وخاصة مع أم سيد. وفى صباح الجمعة وأثناء استحمامه وجد أن عدم الإبصار أيضا ليس بحائل للإتيان بكل ما كان يفعله وهو بصير، فهو يقوم بذات الأعمال المعتادة أثناء استحمامه

ولكن ببطء وحذر وشيء من تلمس الأشياء قبل إمساكها.

وفي طريقه لصلاة الجمعة سمع أحد الرجال يأمر طفلا بمساعدته قائلا: قوم فز ياض وخد بإيد الراجل ده عشان يعدي، وخلى بالك وانت راجع ما انت اعمى زيه. آلمته تلك الكلمات وأحس بما يحسه المكفوفون من جرح لمشاعرهم لمجرد تصرف بسيط أو تلفظ تافه.

وواجهته مشكلة كبيرة أثناء تناول الطعام، فكان لا يعرف بدقة أماكن الأطباق، وكانت أصابعه تتجول داخل محتويات الأطباق قبل اغتنامها اللقيمات، وكان تعامله مع المشروبات صعبا جدا، فكانت السوائل تنسكب على صدره وتبلل ثيابه، فتململ لذلك كثيرا. ولم يستطع إكمال التجربة، ولم ينقض منها حتى يوم واحد، فخلع اللاصق من فوق عينيه، وذهب وتوضأ، وصلى ركعتي شكر لله على نعمة الإبصار..

- 43 -

لم يدرك جابر كنه ذلك المخلوق الذي يراه كل ليلة في منامه، هل هو ملاك أم شيطان؟ هل هو ماضيه أم مستقبله؟ هل هو روح أحد ضحاياه أم ضميره الميت وقد تيقظ؟ كان جابر يرى كتله كبيرة بيضاء تتحرك في الفضاء بهلامية، ولها نتوءات على ظهرها، لم يدرك جابر هل هي حراشف أم أجنحة؟ وكان لذلك المخلوق العجيب أزيز شديد لم يعرف جابر من أين يأتي هذا الصوت؟ فلم يكن لذلك المخلوق فم واضح. واعتقد جابر أن ذلك الأزيز نتاج حركة ذلك المخلوق السريعة والعجيبة.

لم يكن الحوار بين جابر وذلك المخلوق ليقلق جابرا، أو يزعج منامه، على الرغم من تحلق أرواح ضحايا جابر مع أراملهم وأيتامهم حوله أثناء تلك الزيارات الغريبة. فكل هذه الأرواح تبدو خائفة ومنكسرة وقد عقدت يديها حول صدرها ونظرت للأرض خوفا من جابر. وتلك الأحلام لم تكن لتمنع جابرا من أن يبدأ نومه، فضميره مات منذ فترة طويلة، كما أن ما يتعاطاه من حشيش وأفيون كل ليلة كان كافيا لأن يغط في نوم عميق.

كان جابر مجرما عتيدا، وسفاحا بلا رحمة، يقتل كثيرا بلا جريرة، ويسرق كثيرا بلا شبع، وكان له رجال كثر يساعدونه في عدوانه وتكبره. وكان مفتونا بشبابه فهو لم يتعد الثانية والأربعين.

في هذه الليلة دار حوار بين جابر وذلك المخلوق.

جابر متعجبا: أأنت مرة أخرى؟

المخلوق: نعم يا عبد الله

جابر في سأم وضجر: أنا جابر ولست عبد الله.

المخلوق: كل المخلوقات عبيد لله. ألا تخاف من لقاء الله يا عبد الله؟

جابر: مالك الليلة تتحدث في أشياء غريبة؟ هل عرفتني جبانا. لدى نقود كتيره ورجال أشداء. أقتل وأسرق ولا أهاب أحدا. وكما ترى فالجميع مكسورون وخائفون أمامي.

المخلوق: ولكن لكل شيء آخِر.

جابر وقد ارتفع صوته وحد على المخلوق: أنا ليس لي آخِر.

المخلوق: لا يا عبد الله. لك آخِر. وآخِرُك الليلة.

جابر بامتعاض وتردد: كيف الليلة؟ أنا لم أستمتع بعد بزوبه التي اختطفتها منذ يومين ولم أغتصبها سوى مرة واحد.

المخلوق: آخِرُك الآن يا عبد الله. ورأى جابر ضحاياه وأقاربهم يضحكون ويشيرون إليه، وما زالوا متحلقين حوله، بل اقتربوا منه كثيرا حتى كادوا أن يمسكوا به.

جابر صارخا: الآن الآن. هل جننت؟ لا يقدر أحد أن يقترب مني.

انصرفوا جميعكم عني.

يطير ذلك المخلوق العجيب في الهواء ويدور عدة دورات محدثا ضجيجا وأزيزا رهيبا، لم يستطع جابر تحمله، وهنا فقد جابر تركيزه، فلم يدرك هل انقسم ذلك المخلوق لنصفين، وهل مع التفافه في الهواء قد تحول إلى خيطين طويلين، دخلا إلى جوفه عن طريق فتحتي أنفه؟ أم أن كل هذه الكتلة الكبيرة قد دخلت إلى جوفه مرة واحدة عن طريق فمه؟ أم أن ذلك المخلوق العجيب قد التف حوله وضمه ضمة قوية فهشم ضلوعه؟ صحا من نومه مفزوعاً. ولم يستطع الكلام أو الصراخ، فقد أحس بشيء يحشر في حلقه ويمنعه من التقاط أنفاسه. أراد أن يمد يده إلى رقبته فيشقها ليساعد نَفْسَه على التقاط نَفَسِه فلم يستطع، وتمددت أطرافه ويبس جسمه، وانعقدت ساقاه على بعضهما البعض، وازرق جلده، وانساب بوله، واستقر جثة هامدة..

_ 44 _

لم يخطر ببالهما ما تقوم به ابنتهما وهي بمفردها في غرفتها، فهي ابنة السادسة عشر عاما، وأقصى ما جال في خاطرهما أنها تحادث صديقتها على الشات أو حتى تشاهد فيلما خليعا. ما فيش مانع شباب بقي، مهو الزمن اتغير، ذلك ما كانا يقولان وهما يتضاحكان.

في حقيقة الأمر كانت يارا تخاطب فكري على سكايب

فكرى: طب افتحى الفيديو

يارا: وهتستفيد إيه يعنى؟ ما انت سامع صوتي.

فكري: يا حبيبتي صوتك جميل وكل حاجة بس أنا متأكد إن صورتك أحلى، وأنا كمان هفتح الفيديو.

يارا: ياه دا انت كبير.

فكري: سته وأربعين سنه، أنا مكدبتش عليكى، من الأول قولتلك.

يارا: على العموم انا أحب الناضجين، وآدي الفيديو يا سيدي.

فكري يتظاهر بالاندهاش: ايه ده، ايه ده. قمر والله. مش هشوفك بقي. إنتِ كده شوقتينى اكتر.

يارا: ابعتلي عنوانك، ونتقابل بكره.

وفي صباح اليوم التالي كانت يارا تزور فكري في منزله..

- 45 -

والله يا شريف بك ده أحسن قرار اتخذته سيادتك، طبعا المكن محتاج تغيير، والصراحة بقي المهندس عمر زودها قوي، إزاى يتجرأ ويناقش قرارات سيادتك؟ كلمات قالها الأستاذ شافعي مدير المشتريات وهو يقف بجوار مكتب شريف بك مع المبالغة في الانحناء للأمام، وكان شافعي يطلب من شريف بك التوقيع على شراء ماكينات جديدة للمصانع بعشرين مليون دولار، ستضاف إلى خسائر المؤسسة. وبطبيعة الحال سيكون لكل من شريف وشافعي نصيب من هذه الملايين كعمولة.

أما المهندس عمر، المسؤول عن كفاءة التشغيل بالمصانع، فيعض أصابع الندم لأن شريف بك رئيس المؤسسة لم يأخذ برأيه، فقد اقترح المهندس عمر على شريف بك مجرد تغيير جزء صغير في الماكينات، وأوضح أن هذا التغيير سيؤدى نفس عمل الماكينات الجديدة، ويوفر الملايين التي تحتاجها الدولة.

ولكن شريف وشافعي إرتأيا أن ذلك الحل لن يعود على أحد بعمولة. ولذلك رُفض اقتراح المهندس عمر، ونُقل لمصانع الشركة في سوهاج..

- 46 -

امتازت ندى على أقرانها منذ صغرها بجمال وجهها واستدارة جسدها، وكانت تدرس الطب في القصر العيني، وكانت متوسطه الذكاء، وذات شخصية عادية، وكانت قوتها تكمن فى إمكاناتها الجسدية، فكانت تدير رقاب متابعيها ومتابعاتها وتثيرهم جميعا، فالعيون تتفحصها، والأرواح تشوق إلى رؤيتها، والعقول تستلب إليها، لا فارق بين ذكر أو أنثى.

وكانت ندى تشنف أذنيها بتعليقات الإعجاب من شلل الزملاء والزميلات، وما أكثرها، خاصه من الشمامين والقرشانات. فتزداد زهوا وغرورا. ولمن لا يعرف معنى الشمام، فهو ذلك الشخص الذي يتابع النساء بنظراته، وقد لا تكون تلك النسوة جميلات، فهو يتابعهن فقط، مع بعض التعليقات. والقرشانه هى المرأة التى لا تعجبها أنثى أخرى، وتعتقد أنها هى الأجمل.

تستند شلة الشمامين إلى إحدى السيارات بالكلية ويدور بينهم حوار اللوعه والحسرة، وذلك عندما انسلت ندى أمامهم في خفة وهدوء، ورمقتهم بنظراتها، فأثارتهم جميعا. سمعت ندى بعضا مما قالوا، فازداد

انتشاؤها. ومع اهتزاز بعض أعضائها ارتجفت قلوب المتفحصين، فتمادت في خيلائها.

حمدي متسائلا في دهشة: معقول فى كده؟

سامح متباطئا في إخراج كلماته: يا ابني ده الملبن جنبها مش ملبن.

إيهاب ملتاعا: هى دى المثل الحي لنظرية التدوير والتكوير.

محسن في بلاهة: إيه التدوير والتكوير ده؟ وتتعالى الضحكات من كل الشلة لجهل محسن بمبادئ وتعبيرات الشهامين.

محمد زين: يابنى ربنا خلق كل حاجه فى الست يا إما مدوره يا مكوره، وزى ما انت شايف مفيش أحلى من كده درس عملي فى التشريح الخارجي.

سامي بحرقة: امبارح لا عرفت أذاكر ولا عرفت أنام، من التفكير في بنت الإيه دي.

أما القرشانات فكن يقفن بجوار المدخل الرئيسي للمدرج الكبير، وأيضا سمعت ندى بعضا من تعليقاتهن أثناء دلوفها إلى المدرج.

محاسن بصوت خافت: على إيه يا أختى كل ده؟

غادة: هي بس مسخره وقلة أدب وخلاص، والنبي أنا لو قلعت زيها وللا لبست محزق لوقف الكلية دي كلها على رجل.

زينب وهي تداري بعض الشعر الذي ظهر من جانب حجابها: ده قصر ديل يا أختى.

فازدادت ندى إعجابا بنفسها وتمادت فى أرجحه شعرها يمنة ويسره مع إحساسها بالغيرة تحرق قلوب القرشانات..

- 47 -

لا شك أنه استمتع بتلك الجلسة الهادئة وبذلك المساء الجميل، وخاصة مع صوت الست وهي تصدح: غلبت أصالح في روحي، فقد كان جالسا في شرفة الشاليه واضعا ساقا فوق الأخرى، وهو يرتشف قهوته المضبوطة، ويمص بقاياها بشفتيه محدثا صوتا يُستعذب. وكان ينظر أمامه للأفق البعيد ويرقب بعض القوارب الصغيرة والكبيرة المتناثرة، حيث كانت تتهادى على صفحة البحر الرقراق اللامع، ولم يكن يشغله وجهتها أو اتجاهها. فقد كان مستعذب جمال الصوت وشجى اللحن ورقة الكلمات. وعندما قالت الست: صعبان على اللي آسيته في البعد من طول الهجران، لفت انتباهه نظرات بعض المتطفلين خلفه، وهم يبحلقون من فوق سور الشاليه المنخفض، ولم يدرك حينها أكانوا ينظرون إليه ويحسدونه على هذه الجلسة وعلى ما يرى ويبصر، أم كانوا يشاركونه الاستمتاع بذات المنظر. فتركهم يفعلون ما يريدون.

انتشرت في المكان رائحة القهوة ولعلع صوت أم كلثوم ودوى: فضلت أقول الزمان غير على البعد حالك، عندها لاحظ نحلة صغيرة تتطاير

أمامه مع هبات النسيم فتابعها، وشتتت انتباهه المركز على جارته الحسناء في الشاليه المجاور وهي تبدي مفاتنها وقد ارتدت لا شيء. ففضل متابعة النحلة. ومع الرشفات الأخيرة لقهوته رددت الست: أنا اللي أخلصت في ودي وفضلت طول العمر أمين، فتذكر أن ذلك ما كان يستمع إليه منذ ثلاثين عاما ومن خلال سمَّاعة الطائرة وهي تتجه لبلاد الضباب، واهتاجت نفسه لذكريات كثيرة، منها الجميل ومنها ما دون ذلك. ولكن عندما قالت الست: وكان رضاك نور أحلامي لما الزمان يقسى عليا، قام ليعد لنفسه فنجانا آخرَ من القهوة المضبوطة ويعيد الاستمتاع بالاستماع للأغنية من جديد..

- 48 -

بعد زيارة سريعة لأم الدنيا وعلى سلم الطائرة المتجهة غربا، توقف لبرهة ونظر خلفه، ثم ترحم على سعد باشا والست صفية، ودلف إلى الطائرة..

- 49 -

على كافيتريا في آزوتا بيتش بالساحل الشمالي وقبل انتصاف الليل دار هذا الحوار.

زيزي رافعة يديها: مش ممكن اللي بيحصل ده يا كيكي.

كيكي في ملل وهي تنظر إلى ميزو الجالس بجوارهما: واتس اباوت؟

زيزي وقد قطبت جبينها: يستردي واحنا جايين. ماركو الخدام الفلبيني بتاعنا ما انتي عارفاه

كيكي مع استدارة تجاه زيزي: اه عارفاه ماله؟

زيزي في حرج: ماركو حب يعمل بى. غصب عني ركنت الهامر في السيرفيس على التريق. ياي يا كيكي على اللى شوفته ياي.

كيكي: انتي هتقوليلي. دا انا بشوف سكاندالز قد كده. المهم حصل إيه؟

زيزي: وانا مستنيه ماركو، آ ليتل بوي ماسك في أيده توميتو حب يرميها علي، وكان بيقول ألفاظ ياي، مش ممكن الناس دي. المهم باباه مش يقول سوري لأ كان عاوز يتخانق معايا.

كيكي وقد تنمرت ورفعت حاجبيها: وده من انهي بيتش ده؟

زيزي: قال انه من قرية أولاد الحلال، بعد العلمين.

كيكي: مش معقول النورث بيتش بقى بلدي خالص. أيه حكايه قرية دي هوة احنا هنا فلاحين وللا ايه.

زيزي: تري سوفاج. أنا هكلم أونكل عبد الحفيظ، اور امباسادور في سيسيلى ما انتي عرفاه

كيكي في ابتسام لذكر عبد الحفيظ: أه هو بولد بس تري جنتي، عاوزاه يعمل ايه

زيزي: هخليه يكلم أونكل مستفى مدبولي يعمل لنا تريق مخسوس علشان الناس البلدي دول ما يجوش جنبنا.

كيكي ناظرة لصدر زيزي: بس قوليلي انتي البكيني بتاعك ده مش لبستيه لاست ويك.

زيزي وفى حركة لا إراديه ترفع ثدييها بيديها لتعدل من وضعهما: اعمل ايه يا كيكي، التياره اللى جايه من باريس وكانت جايبه مايوهاتي البوريفيان عملت ايميرجنسي لاندينج في ايتالي علشان كان عليها قته عاوزه تولد.

كيكي: اوف لايف هير از توو هارد. ازاي البراندات بتتاخر كده. لا واخر خبر، واحد هنا عاوز يعمل فيش ريستوران، ياي ويعمل حاجه اسمها بلتي مشوي، وتصرخ كيكي وهي تهز رأسها مستنكرة: بلدي بلدي.

زيزي في تعجب: مش يعمل سوشي أحسن.

في هذه الأثناء ترتفع أصوات الموسيقى ويتم الإعلان عن بدء البيجاما بارتي، فتهب زيزي وكيكي راقصتين ومتمايلتين وبصحبتهما ميزو للمشاركة..

_ 50 _

تمكن الأسد من البقرة المسكينة، وبلا رحمة قبض على رقبتها بفكيه القويين، ونشب مخالبه في صدرها، وباقي القطيع يرقب عن بعد. حاولت البقرة التملص والإفلات، ولكن هيهات.

أحيانا قد تستطيع البقرة الخلاص، ولاسيما عندما يتحد القطيع..

- 51 -

تناقص عدد أطباء الاستقبال بمستشفى امبابه العام، فقد رحلوا واحد بعد الآخر، ولم يتبق إلا الدكتور حسام. رحل معظمهم إلى السعودية وبعضهم انتقل للعمل في أوبر أو كريم وقليلهم ذهب إلى نيوزيلاندا.

وعندما شرع الدكتور حسام في خياطة جرح غائر برأس أحد المرضى تفاجأ بدخول ثلاثة من الشباب يترنحون ويتحدثون بطريقة ممطوطه وممدودة، وكان أوسطهم لا يستطيع الوقوف دون مساعدة من صاحبيه.

وسارع بِشْلَه بمخاطبة الدكتور حسام قائلاً: إلحق سِنْجِه يا دكتور واخد برشامتين زيادة.

في ذهول لدخول هؤلاء عليه أثناء عمله، توقف الدكتور حسام عن الخياطة ورفع رأسه ونظر إليهم مرددا: دقايق أخلص اللي في إيدي وأفضى لكم.

هنا أخرج مَرهَم مطواته من جيبه وفتحها بسرعة وقال: شكلك يا

دكتور عاوز تشوف كرشك وتسلم عليه.

ذُهل الدكتور حسام لرد الفعل السريع من مرهم، فترك الخيط والمريض، وتراجع خطوات للخلف حتى اقترب من الباب الجانبي للغرفة وِشرع في فتحه.

وعندها تنبه بشله واستعاد بعض تركيزه، ورفع ساعديه لأعلى، وجحظت عيناه، وضغط بقوة بشفتيه على أسنانه، وقال: إنت بتعمل إيه يا دكتره؟ عاوز تهرب؟

رد حسام في لجلجة: أبدا الجو حر زي ما انت شايف، وعاوزين شوية هوا. فهجم بشله على حسام الذي أفلح في فتح الباب وركض إلى الشارع حتى لحق بميكروباص وألقى بنفسه داخله.

استقر الدكتور حسام على مقعده في الميكروباص وأسند رأسه للخلف وهو يلهث، وتساءل في يأس وحسره: لقد كدت أن أموت اليوم، ألهذا درست الطب سنوات طويلة؟ ومع هدوء أنفاسه هاتف الدكتور حسام والدته وقال في تعب: أيوه يا ماما الحمد لله، اليوم عدا على خير، وأنا في الطريق.

ردت والدته: تيجي بالسلامة يا حبيبي، خللي بالك من روحك. على فكره جالك جواب من السعودية فيه تذكرة طيارة..

- 52 -

أبو محمد وهو يربت على كتف ابنه محمد: يشرفني يا حاج محرز أطلب أيد أحلاهم لمحمد ابني

أبو أحلاهم مضجعا للخلف ورافعا ساقا فوق أخرى: وياترى هتقدروا على مهرها؟

أبو محمد وقد زَوَى ما بين عينيه وخفض صوته: أؤمر يا حاج محرز.

أبو أحلاهم: عشرين ألف مهر، وعشرين ألف شبكة، وعشرين ألف يعني بعد الشر مؤخر.

أم أحلاهم رادفة زوجها: وهتجيبوا العفش كله، وكمان الأجهزة الكهربائية والنجف والسجاد والمطبخ.

أبو محمد وكأنه يردد في جوفه: ما شاء الله، وانتو بقى هتجيبو أيه بالصلاة عالنبي؟

أبو أحلاهم رافعا صوته وكأنه يخطب في جمهور: أحسن ألامونيا هنجيبها لأحلاهم. ست حلل ومصفا.

أبو محمد: يا حاج محرز خففها شويه. البنات اللي في سن أحلاهم

مخلفين تلات عيال دلوقت.

أم أحلاهم مصدرة صوتا من أنفها: إنت هتتمسخر علينا ياحاج إبراهيم؟ مش كفايه داخل علينا بشكولاته بس... فين الجاتوه؟

أبو محمد واقفا: حقكم عليا. إستنى إنت هنا يا محمد وأنا خمس دقايق وراجع. ويتجه نحو باب الشقة.

تنظر أم أحلاهم لزوجها وتبتسم ابتسامة المنتصر... والمنتظر الجاتوه، وترفع رأسها لأعلى وهي ترمق محمدا الجالس أمامها بنظرة احتقار.

يعود الحاج إبراهيم ومعه خمسة أكياس من الملح ويلقيها أمام أم أحلاهم، ويختطف ابنه محمد من يده، ويتوجه به مهرولا ناحية باب الشقة، وقبل خروجهما يستدير للخلف ويخاطب والدي أحلاهم: علينا الملح والملح أهه وعليكم الخل. خللوا أحلاهم بقي. ويصْفِقُ البابَ خلفهما..

_53_

عبثا حاولت ماهيتاب إثناء جدتها عن رتق الفتق الممتد بجانب بنطالها متوسلة: دي الموضة يا تيتا. ولكن الجدة في حدة وخشونة التقطت الإبرة والخيط وبدأت في الرتق قائلة: موضة أيه دي يا ختي اللي تبين لحمك؟ واستسلمت ماهيتاب لرغبة جدتها حتى انتهت. وفور خروجها من شقتها سلت الخيط من الرتق، فانفلج الفتق مرة أخرى وأظهر ما أرادت الموضة وماهيتاب أن تظهرانَه..

- 54 -

اعتاد الحاج عبد الصمد أن يودع أهله في منزله عند ذهابه للحج ويرفض رفضا باتا اصطحابهم له إلى المطار كما يفعل الجميع، واعتاد أن يتأخر في عودته من الأراضي المقدسة شهرا أو شهرين ليزيد استمتاعه بالقرب من الرسول صلى الله عليه وسلم، كما اعتاد أيضا أن يفاجئ أهله بعودته على غير موعد حتى لا ينتظرونه بالمطار. وكان يمارس ذلك كل عام.

ولم يلحظ أحد أنه فور دخوله المطار كان يستبدل لباس الإحرام بثيابه العادية، وذلك قبل استقلاله الطائرة المتجهة إلى بيروت..

_ 55 _

بعد عدة محاولات لإخراج غطاء الرأس من ياقة معطفه ناول الحاج عبد الله المعطف لأم حسام لاستخراج ما عازَ عليه، وعبثا حاولت هي الأخرى، وعلى الرغم من تورم أصابعهما لالتهاب مفاصلهما فقد استمرا في محاولاتهما. وكان المطر بالخارج شديدا وكان صوت ارتطام قطراته بزجاج النوافذ يخترق أذنيهما فينظران لبعضهما ولا يعرفان ماذا يفعلان، خاصة وانهما بحاجة ماسة للخروج لشراء الطعام، ولكنهما لا يستطيعان الخروج دون ستر رأس الحاج عبد الله. فالطريق طويلة.

اتصل الحاج عبد الله بابنه حسام ليستشيره، فهو لديه نفس المعطف، ولكن الحاج عبد الله وزوجته لم يتمكنا من فهم ما شرح حسام. فاتصلا بالمحل الذي اشتريا منه ذلك المعطف في العام الماضي، ولم تكن نصائح الفتاة على الناحية الأخرى من التليفون أفيد مما قال حسام. فعادا لمحاولتهما إخراج ياقة المعطف من الياقة، وفشلا مرة أخرى. وزاد الرعد والبرق المصاحبان للمطر هلع الزوجين، فالحاج عبد الله سيصاب بالبرد بسرعة إذا لامست قطرات المطر الباردة رأسه الصلعاء.

ولما يئسا من استخراج غطاء الرأس من ياقة المعطف، قررا استخدام قبعة قديمة ذات بطانة صوفية، وكان الحاج عبد الله يحتفظ بها في دولابه، فهي ستغطي رأسه الصلعاء وتغنيه عن إخراج الغطاء من الياقة.

- 56 -

رآها مرة واحدة في حفل أقامه صاحب المطعم الغني الذي يعمل به في أولاد صقر، وعرف أنها ابنة صاحب المطعم، وفي تلك الليلة أعجبته وداوم متابعتَها. لم يجذبه رداؤها الأحمر العاري والأنيق، ولم تجذبه قامتها الممشوقة والرشيقة ومفاتنها الظاهرة والمخبأة. ولكنها أسَرت قلبه بابتسامتها الجميلة، وسحرته ببراءتها، وفَتَنَته برقتها، وأومأت إليه بعينها كدلالة على درايتها بانبهاره، فامتلأ لحاظُها فتونا. كانت لحظة بسيطة من طرف عينها واستغرقت ثانية واحدة، ولكن سحر لحظها استدام لأيام وليال، أرّق ليلَه وعذّب نهارَه. ففكر كثيرا ولكنه في النهاية قرر وأد حبه في بدايته، وأنّى له أن يصل إليها، فهو عامل مبتدئ، لا يليق به حتى أن يحدث نفسه بما يجيش في نفسه، وفي ذات الوقت لا تستطيع نفسه تحملَ ما يكابد ويعاني.، فتعذب لذلك كثيرا. وكان مسْلاه من هذا العذاب عندما التقاها عند شجرة كبيرة على شاطئ بحر مويس عند مروره بأولاد صقر، فهي واعدته عن طريق خادمتها. وباح كل منهما للآخر بحبه وهيامه، حيث كانت هي الأخرى قد أعجبت به، وشجعته ليتقدم لخطبتها. ولم

يفعل بل انتهت علاقتهما عند تلك الشجرة الكبيرة.

كان كلُ ذلك يلم بخياله، عندما يمر بتلك الشجرة، حيث اعتاد أن يُوقفَ سائقه على مدى غير قصير من هذه الشجرة. كان يفعل ذلك في ذكرى ذلك اللقاء الوحيد وعلى مدار خمسين عاما. فهو قد نجح نجاحا باهرا في حياته العملية والتحق بالجامعة، وأصبح مالكا لسلسلة شهيرة من المطاعم، وكانت ثروته تقدر بملايين الجنيهات. وطوال حياته لم يتزوج ولم يتبادر لذهنه حتى التفكير في غيرها فكان يكفيه استعادة لحظ عينها، أما هي فقد تزوجت ولم يتابع هو أخبارَها، ولكنه عاش مع طيفِها حتى بلغ سناً متقدمة.

وفي إحدى مرات توقفه لدى تلك الشجرة الكبيرة لاحظ امرأةً عجوزاً تلقي ببعض الزهور حولها، فطلب من سائقه مساعدته للوصول إليها وأمله يحدوه ويحثه أن تكون هي. وحدّق النظر إلى المرأة واستعاد ذاكرته فعرفها، إنها خادمتها وقد عرفته، وأخبرته أن حبيبته ترملت بعيد زواجها، ورفضت كل من حاول الارتباط بها حتى ماتت ولم يعرفْ أحدٌ سببا لرفضها المنيع، وقد طلبت منها سيدتُها أن تُداوم على نثر الزهور في هذا المكان وفي ذات اليوم من كل عام. فرنا إلى البحر وأشعة الشمس الغاربة تترقرق فوق مائه واستعاد لحظ عينها. وردد

إذا طلعت شمس النهار ذكرتها وأحدِثُ ذكراها إذا الشمس تغرب [1]

(1) من شعر عمر إبن أبي ربيعة

- 57 -

سامح: زهره يا حبيبتي! إحنا طالعين الحج، وأنا اتصلت بكل معارفي وقرايبي وحتى المختلف معاهم، وطلبت منهم يسامحوني عشان ربنا يقبل الحجة.

زهره: ها وبعدين، هات م الآخر.

سامح: يعنى لو تتكلمي مع ماما وكده يعنى.

زهره: بص يا سامح أنا بحج لربنا، وأمك ما لهاش دعوه بالموضوع خالص، متفتحش الموضوع ده تانى. مفهوم؟

سامح يشيح بوجهه للجهة الأخرى متمتما، لا حول ولا قوه إلا بالله العلى العظيم..

_58_

محمد: يا وزه يا حبيبتي، ماما هتتبسط قوى لما تزوريها وهي تعبانة، خمس دقايق بس في الشقة وانزلي بسرعه. هوة احنا مش مخطوبين وللا إيه

وزه: أوعى يا محمد تعمل حاجه وحشه!! شرفي!!

محمد: ابدا يا حبيبتى. هو أنا وش كده

عند دخول وزه للشقة تقف مذهولة ومبتئسة، فقد وجدت أم محمد أمامها..

- 59 -

كمال يقود سيارته يوميا لمده ساعة ونصف. من نونتنجهام حيث يقيم إلى برمنجهام حيث يعمل، يستمع لأم كلثوم وهي تشدو رق الحبيب، الطريق مشغول بالإصلاحات، لا يعترض أو يتبرم، فقط يتذكر زنقة أكتوبر في أغسطس، ويبتسم ابتسامه عريضة ويكمل مشواره..

- 60 -

عندما بدأت محركات الطائرة في الدوران نظرت شذى إلى ميار نظرة مُتعَبَةً وتنهدت قائلة: أخيرا يا حبيبتي هنبعد عن العالم دِي، وترد ميار مومأه برأسها المتكأ على مسند الرأس كدلالة على الموافقة: أيوه يا روحي، كان ناقص نتشاهد زيهم. وبعد دقائق قليلة تغط شذى وميار في نوم عميق كأنهما لم تنما لأيام، ولم يوقظهما سوى سؤال المضيفة وهي تهزهما بعنف وتتساءل: فراخ ولا لحمة؟

كانتا صديقتين متشابهتين ومتشاركتين في كل شيء، انتهيا من دراسة الطب في مصر، وقررتا الفرار منها بحجة إكمال دراستهما بأوروبا، وفي واقع الأمر كانتا تفران مما كانتا غير مقتنعتين به ولسنوات عديدة. وعند تناولهما الطعام دار بينهما الحوار التالي.

شذى: ها هتقولي بسم الله برضه؟

ميار وهي تقهقه حتى التفت إليها المحيطون في تعجب: لا طبعا. ما احنا هناكل هناكل، أيه اللي دخل الله في الأكل؟ وبعدين مين الي قال إن في إله أصلا؟

شذى في تبرم: ما هوة ده الهَم الي إحنا سايبينه وقرفانين منه.

ميار وقد توقفت عن الأكل ونظرت لصديقتها باهتمام: عالم تعبانه قوي، يقولو ليك أن الكون خلقه إله ويسير أموره بنفسه، يعني دارون ده بقي نرميه هو ونظريته في الزبالة؟

شذى وهي منهمكة في التهام قطعة كبيرة من اللحم بعد أن أغرقتها بالملح: لا وعاوزينا نسمع كلام ناس غريبه سمو نفسهم أنبياء.

ميار وهي تبسط الزبد على قطعة من الخبز: بالذمة أنا دكتورة وفي القرن الواحد والعشرين أسمع كلام واحد أمي كان عايش في الصحرا من ألف وربعوميت سنه ليه؟

شذى وهي تتفحص قطعة الحلوى ويبدو أنها لم تعجبها، فألقت بها في الماعون أمامها وقالت: هوة إيه الي فتح السيرة دي؟ وتنظر إلى ميار وتقول في وله وغنج مع مد كلماتها برقه وحنان: سيبك أنتي وحشاني قوي، مشكلة مصر للطيران إنهم ما بيقدموش ويسكي.

ميار في دلال: ولا يهمك، نوصل بالسلامة وأشتريلك أحلى ويسكي، وتبقى ليلة.

تصرخ شذى وهي ترفع ذراعيها لأعلى: يبيس. وكانت شذى ترتدي قميصا رفيع الحمالات وبلا أكمام وظهر ذراعاها المكتنزان، فتفلتت من المحيطين نظرات متفحصة، غمرت كل أجزاء شذى ودامت طويلا.

ولدى خروج شذى وميار من المطار في فرانكفورت، اصطدمت سيارة مسرعة بشذى وقتلتها، فحزنت ميار لذلك حزنا كبيرا. ومما زاد

حزن ميار أنها وفي نفس الليلة عندما كانت تتحسس صدرها أحست بكتلة صلبة بداخله. وانقبض لذلك قلبها، وفي الصباح كانت تعاود الطبيب الذي أخبرها بعد فحوصات عديدة بالخبر المشئوم.

بعد موت شذى المفاجئ، وإصابة ميار بالمرض اللعين، أخذت ميار تفكر وتفكر، وتساءلت: لماذا قتلت السيارة شذى ولم تمسسني أنا بسوء على الرغم من كوننا متجاورتين أثناء سيرنا؟ لماذا هي تموت وأنا أعيش؟ وماذا تراني أنا فاعلة فيما أصابني من مرض متقدم؟ وهل للخروج مما أنا فيه من سبيل وقد أخبرني الطبيب أنها شهور معدودة لأحياها؟ وكان هناك هاتف بداخل ميار يحادثها بما رفضته طوال سنوات عمرها، وكان ذلك الهاتف يدعوها لإعادة النظر والتفكير، بل وكان الهاتف يرهبها بقصر ما بقي من عمرها، ويغريها لاقتناص الفرصة والعودة، وكان الهاتف يكرر أنه دوما مازالت هناك فرصة للعودة ويقول جربي فقد يكون ما يقوله ذلك الأمي صحيحا. ولكنها لم تستجب لذلك الهاتف..

*كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (14 المطففين)..

61

كان الأستاذ موسى قصير القامة، مترهل الجسم، مستدير الكتفين كاستدارتهما عند النساء، أصلع الرأس، فلم يكن متبقيا برأسه سوى شريط ضيق من الشعر يحيط برأسه من الأذن إلى الأذن، وكان يحرص على إطالته و صباغته باللون الأسود الداكن، وكان كثيف الحاجبين ولامع العينين، وبوجهه ندبات قديمة كمن أصابه جدري في صغره، وكان له فلجة في أسنانه السفلى، أما أسنانه العليا فقد تسابقت في احتلال فكه العلوي المحدود فتراكبت فوق بعضها، وكان له لُكْنَةً غريبة في لسانه، فكان ينطق حرف السين كالثاء، وكانت الدال تنبعث من فمه وكأنه قد عض لسانه من جانبه، أما حشرجة صوته فكانت تتطلب من مستمعه شديد الإصغاء وكثير التفكير ليتفهم ما يقول موسى، وكان يترك الثلاثة أزرار العليا من قميصه دون إدخالها في أعرائها، فتظهر شعرة وحيدة في صدره وقد حرص على صباغتها أيضا باللون الأسود الداكن.

عيَّنَه صديقه القديم حسن البستاني كمدير للعلاقات العامة بإدارة البهجة، وكان ذلك بعد تكوين إدارة البهجة بوزارة السعادة واختيار

حسن البستاني مديرا لها، وكان موسى خير من يشغل هذا المنصب، فهو وإن قارب الستين غير متزوج، وكان متفرغا لعمله، ويستمتع بتواجده نهارا بوزارة السعادة وليلا بالوكر.

كانت زميلات الأستاذ موسى بإدارة البهجة تعاملنه كرجل كبير، وكن يراعين أنه غير متزوج، فيسمحن له بما لا يسمحن لغيره من الزملاء الرجال، ويقدرن لهفته على ملامستهن كمراهق صغير، فسمحن له مرة بتدليك كاحل إحداهن عند التوائه، ومرة أخرى بالنفخ في عين زميلة ومن فوق منديل عندما أصاب عينها شيء فدمعت. وكن كنساء يعرفن مبتغاه مما يأتي من أفعال ويتغامزن فيما بينهن ويقلن: ليس متحرشا ولكنه مراهق ومتصابي واللمس أقصى ما يستطيع، ثم يُتبعن ذلك بضحكات طويلة ورنانة يستقبلها موسى ببلاهة. وكان موسى يطلع حسن بك علي ما سيحضره له بالوكر فيسمح له بالانصراف مبكرا من الوزارة، فالطريق للباطنية طويل.

لم يكن الوكر يستقبل نساء كما ظن الجيران، فجميع مرتادي هذه الشقة رجال من أصدقاء حسن بك، يبغون المزاج العالي، ولا رغبة عندهم للمزاج الجنسي، فغض الجيران طرفهم طالما أنه ليس هناك جنس ناعم بداخل الشقة، وارتاح لذلك موسى، فالتحضير للمزاج يحتاج لمزاج. وكان يخلط الحشيش بمعسل الياسمين الذي يفضله حسن بك، فيتكون خليط لزج وداكن اللون، يدسه موسى في الأحجار العديدة المرصوصة على الأرض بجوار الأرائك المنخفضة والتي تملأ غرفة المزاج،

وكان يحضر الجوزة ويغير ماءها يوميا، وينظف بوصتها من الخارج ومن الداخل، فالقليل من الهباب المترسب بداخلها يؤثر على قوة السحب أثناء التدخين، وكان يعد الفحم ويبرم فيه النار ويزيده التهابا بالنفخ المستمر حتى يصبح مشتعلا وجاهزا لدى وصول حسن بك. عندها يضع الفحم المشتعل على الأحجار المجهزة وتبدأ السهرة، وكان ذلك البرنامج يتكرر مرتين أسبوعيا ولمدة طويلة حتى جدت في الأمور أمور. فقد تم فصل حسن بك والأستاذ موسى من وزارة السعادة فجأة، ولم يعرفا سببا لفصلهما ولكنه قد نما لعلمهما أن وزير السعادة قد علم بخبر الوكر. لكن سيادة وزير السعادة لم يكن معترضا على فكرة وجود الوكر أو ما يدور بداخله، أو انتماء الوكر لرجال بوزارته، ولم يكن معترضا أيضا على تواجد حسن بك وموسى بالوكر وتدخينهم الحشيش، ولكن سيادة وزير السعادة كان مستاء جدا من حسن بك البستاني والأستاذ موسى لأنهما لم يدعواه للوكر..

- 62 -

في إحدى ليالي ديسمبر الباردة، وبعد يوم جهيد استغرقه كله في غرفة العمليات، أوى الدكتور جلال لفراشه عله يغنم ببعض النوم. ولكن صوت الهاتف العالي منع نومَه استمرارَه. فعلى الناحية الأخرى من الهاتف كانت الطبيبة الحديثة تطلب حضور الدكتور جلال للمستشفى، فلديها سيدة مسنة تعاني صعوبة التنفس وقد تحتاج لعملية الشق الحنجري. لم يدر الدكتور جلال كيف وثب من فراشه الدافئ، وكيف ارتدى ملابسه بسرعة، وفي خلال دقائق كان يقود سيارته متجها للمستشفى غير عابئ بتراكم الثلج فوق الطريق أو شدة المطر وصعوبة الرؤية. وتعجب لهذه الطاقة التي ألمت به وكأنه شاب عشريني على الرغم من انشغال فكره بقرب تقاعده.

وفي المستشفى وجد سيدة تسعينية مغمضة عينيها وتصارع مَن حولها في اقتناص أنفاسها، وكثير من الأنابيب تتصل بكل أجزاء جسمها، وكانت تنثر ذراعيها و تفرقهما في الهواء، وعلى الرغم من زرقة جلدها فإن المراقب كان يستطيع ملاحظة امتلاء ذراعيها ببقع كثيرة داكنة تدل على

شدة معاناتها وطول معاناة أطبائها، ومع تنفسها فإن المتابع كان يستطيع أن يميز صوتا عاليا مشابها لصوت محرك سيارة قديم افتقد الصيانة، وكان طبيب التخدير واقفا على رأس سريرها وممسكا بقناع الأكسجين ويضغطه فوق وجهها، وبسرعة تعرف الدكتور جلال على تاريخها المرضي وراجع بعض علاماتها الحيوية، وفي ثوان قليلة كان يدفع منظاره داخل أنفها ليكمل تشخيصه. وبعد مشاورة طبيب التخدير قرر الطبيبان الاكتفاء بتخدير هذه المرأة المسكينة حيث كانت تعاني من التهاب بلسان المزمار والذي أعاق يُسرَ تنفسها، وقررا إعطائها بعض العقاقير المساعدة، فاستقرت حالتها.

لم يدرك الدكتور جلال سر تفاعله مع هذه السيدة، وهو الذي مرت به حالات مشابهة كثيرة، بل وأكثر صعوبة، وكان دائما يُحَدِّثُ الأطباء الصغار عن ضرورة عدم الانفعال في هذه المواقف بصورة تؤثر على أداء الطبيب. ولكنه عندما سمح لأقارب هذه السيدة بالدخول وإلقاء النظرات عليها راقبهم وتابعهم، وكان تفاعله في تلك الليلة مختلفا، وأحس بشيء يتغير داخله، فكان الأقارب يقتربون واحدا وراء واحدة ببطء ويقبلون وجنتها أو رأسها بحنان، والحزن يغمرهم لما يرونه من معاناتها، وبعضهم طفرت الدموع ونبعت من عينيه لما رآه عليها من انكسار ووهن، فقريبتهم وإن كانت نائمة تحت تأثير المخدر قد بدت لهم كمن ماتت منذ مدة طويلة. وكان انفطار قلب الدكتور جلال عندما دفعوا بزوجها التسعيني على كرسيه المتحرك ليقترب منها، وبصعوبة

بالغة وببطء شديد تمكن وبمساعدة الممرضات أن يقف بجوار زوجته، ودنا واقترب برأسه من راسها ولكنه لم يستطع ملامسة وجهها لتصلب بظهره، وأخذ يتمتم بكلمات في أذنها، وتوقع جميع المتحلقين حول السرير ما يقول هذا المسكين. في هذه الليلة اكتشف الدكتور جلال أنه لم يعد يستطيع معايشة تلك اللحظات، وبدت بعض الدموع بعينيه، فقرر أن تكون هذه السيدة هي أخر من يعالج، ويومها اعتزل الدكتور جلال الطب..

- 63 -

بلغ هو وزوجته الثامنة والأربعين، وكان زواجهما بعد قصة حب تحاكى بها الأهل والأصدقاء، وفي مساء هادئ فاجأها بورود حمراء وأوقد شموعا تفوح منها رائحة تحبها، فانتصبت في منتصف سريرهما وهي تراقبه في تحفز وهو يتحرك في غرفة النوم بخفة ونشاط ويأتي هذه الأفعال.

وعندما اقترب منها في لطف وحنان قال: بقول إيه يا حبيبتي

صرخت في وجهه كقطة وقد وَطِئَ أحدهم ذيلها: لا تقولي ولا أقولك، أنا عارفه الحركات دي

فيتلعثم ويقول: يا حبيبتي أنا عاوز أعبر لك عن حبي

فتقاطعه قائلة: يا راجل عيب عليك، دي العقيقة بتاعت حفيدك كانت امبارح، أنت فاكر نفسك صغير؟

فيبادرها بنبرة حاده: هذه نقرة وتلك أخرى

وتتدثر بغطاء السرير وتتجه بجسدها كله ناحية الحائط قائلة: بلا نقرة بلا بقرة

فينظر لسقف الغرفة وقد زم شفتيه دهشة ويتساءل وكأن هناك من يخاطبه بالسقف: أعمل إيه!؟

فتبادره من تحت الغطاء قائلة: والنبي تنام وبلاش خوته، ولا أظنك تروح تتجوز زي صحابك المهاطيل، ما هو أصل الرجالة لما بتكبر بتتهبل وتتجوز.

لم تكن المرة الأولى التي تتمنع فيها عليه، بل كان هذا الحوار وكثير مثله يدور بينهما من وقت لآخر، ولأنه يحبها كان يتغاضى عن تطاولها ورفضها ما يريد، ولكنه كان يتألم لذلك كثيرا وهي لا تأبه بما يعاني، وكان ذلك لشهور طويلة. حتى ظهرت يُسْر.

كانت يُسْر مهندسة شابة، ترملت منذ أسبوعين فقط، والتحقت بالعمل في مكتب صاحبنا، وزادها السواد جمالا وفتنة، وعلى الرغم من حزنها إلا أن ثغرها كان باسما، فكانت تبعث الراحة في نفس من تخاطب، وبالطبع وجد صاحبنا الراحة عندها. وبسرعة التقيا عدة مرات في كازينو حبيب القلب، وكان يدور بينهما الحوار لساعات.

هو يمسك يديها بحنان ويقول: متعرفيش يا يُسْر أنا ارتحت لك قد إيه، وازاي مليتي على فراغ حياتي

يُسْر تقول في دلال: الوحدة صعبة قوي يا حسين، أنا كنت بحب المرحوم، لكن الوحدة هتقطعني.

هو يقول: خلاص لازم نتجوز، هشتريلك شقة في المهندسين، ونتجوز بعد العدة على طول

يسر تقول وكأنها مضطرة: اللي تشوفه يا حسين.

وصل لعلم الزوجة الأولى خبر زواج حسين ويُسْر، فيُسْر لم تكن لتترك حسين لليلة واحدة وهو كذلك لم يستطع، وصارحته زوجته الأولى علمها بزواجه فقال لها: أنا لسه بحبك يا حياتي وهعدل بينكم.

هي ناظرة للأعلى وملوحة بيديها في الهواء: لا يا روحي، طلقني

هو: يا حبيبتي

فتقاطعه وتقول بنبرة صوت عالية وبتفصيل للحروف: طلقني

هو: يا حياتي

تقاطعه صارخة وبكثير من حدة وضغط على الحروف: طلقني

طلق حسين زوجته الأولى واتجه للمهندسين..

- 64 -

لملمت أم علاء نحاسها وأشياءها في مدخل شقتها، وعقدت عزمها على الرحيل. إلى أين؟ لا تدري. من سيعولها؟ لا تدري. كيف ستدبر أمورها وحياتها؟ لا تدري. فقد فاض بها الكيل، ولم تعد تحتمل ما تعانيه وتقاسيه من زوجها. وتكررت محاولات طفشها مرات كثيرة، ولولا تدخل الجيران في كل مرة لكانت أم علاء قد غادرت منذ فتره.

كان زوجها سكيرا وسيئ الخصال، وكثيرا ما يتطاول عليها بالسباب والضرب المبرح، ويعلم سكان الدرب جميعهم سوء خلقه وذميم عاداته، وما انفكوا يشاهدونه يصطحب أصدقاءه ومعهم سيدة أو اثنتين لمنزله وفي وجود أم علاء، وما برحت أم علاء تنهر زوجها عن إتيان المنكر في بيتها ولكنه لم يكن ليرتدع، بل كان يزداد في غيه ويزيد إيذاءه إياها.

وفي تلك الليلة انهارت أم علاء تماما، وتبادلت الصياح مع زوجها، وأعادت ما اعتادت ذكره في مشاجراتها السابقة من ندب لسوء حظها، واقتراف أبيها لكبير الذنب بتزويجه إياها لذلك الرجل النذل والخسيس. فيرد زوجها وبصوت أعلى أنه تكرم عليها وعلى عائلتها بهذه الزيجة

المشؤومة، وأنها لم تجر عليه إلا النكد وضيق الرزق، ويدعو لها بالموت وسوء العاقبة فقد عكرت عليه صفو مزاجه في تلك الليلة وخاصة بعد تناوله جرعة كبيرة من الحشيش. فقام بركل النحاس المكوم أمامه والذي ارتطم بجدران الشقة وأحدث ضجيجا أعلى من صياحهما، وكان الجيران يسمعون هذا النزاع والذي يتخلله ضربة هنا وصرخة هناك، وكانوا يميزون صوت الركض العنيف داخل الشقة ويتخيلون ما يحدث من عراك بداخلها، فتدخلوا لفض تلك المعاناة، ولكن تصميم أم علاء هذه المرة كان مؤكدا، فساعدها الجيران على إنزال أشيائها للشارع، وكومتها إلى جانب ضيق منه، وارتاحت. ومرت أيام وشهور وأم علاء لا تدري ما القادم. فأهل الخير يكفلونها ويمدونها بالطعام والغطاء. وتحملت حر الصيف وبرد الشتاء. ولم يكن ذلك الحال ليؤلمها كما آلمها ما تسمعه تكرارا من نساء الدرب عند مرورهن بها ومطهن شفاههن تعبيرا عن الندم، وتساءلن فيما بينهن في حسرة: بقي مش أيام أبو علاء كانت أحسن؟.

- 65 -

يعمل ميلاد كموظف في الصرف الصحي بأبي قرقاص، ودار بينه وبين زميله سمعان الحوار التالي.

ميلاد واضعا رأسه بين كفيه وقد أرخاها للأسفل: دوخه وزغللة وصداع رهيب هيفرتك نافوخي

سمعان مبديا اهتماما: وليه ما روحتش عيادة التأمين؟

ميلاد يائسا: رُحت لقيت الدكتور بيغني بلادي بلادي وراح مسافرع السعودية وقال سلام، سايبهالكو

سمعان مستغربا وهو يمد كلماته مع مخارجها: وماله، بالسلامة يا أخويا، وهوه مفيش غيره؟

ميلاد ومازال يائسا: لا كان فيه بس دكتورة النسا

سمعان: وماله، نسا نسا، يعني هي هتقلعك؟

ميلاد وقد أثارته كلمات صديقه: تقلع مين يا جدع. مقلعتش طبعا، هي قالت عاوز عرض استشاري مخ وأعصاب

سمعان: وماله، وهو فين؟

ميلاد وقد عاد ليأسه: ميعاده بعد أسبوعين، أصله بييجي من المنيا كل أسبوعين.

سمعان: وماله، طب ما تروح المستشفى الأميري.

ميلاد: رحت، وماكانش فيه غير دكتور أطفال.

سمعان: وماله، أطفال أطفال. هوة هيرضعك؟

ميلاد وقد أثارته كلمات صديقه مرة أخرى: يرضع مين يا جدع. مرضعتش طبعا بس هو قال عاوز أشعة رنين.

سمعان: وماله، ماتعمل رنين

ميلاد: الجهاز عطلان.

سمعان: وماله، طب ما تروح للدكتور دانيال

ميلاد وقد بدأ في البكاء لشدة الصداع: الدكتور دانيال كشفه بقى خمسين جنيه

سمعان: وماله، خمسين خمسين

ميلاد وهو يبكي: منين يا سمعان، ما انت عارف البير وغطاه

سمعان: وماله، خد. فنظر ميلاد إليه متلهفا وهو يفتح درج مكتبه، ولكن سمعان لم يخرج نقودا ولكنه أخرج بعض الأدوية

ميلاد: إيه ده؟

سمعان: الدوا ده أخدته من خمس سنين وريح الصداع، والشوية دول فاضلين منه.

ميلاد: ياه خمس سنين، ده زمانه باظ

سمعان: يا راجل قول يا باسط

ميلاد: ما يمكن أنا عندي حاجة تانية

سمعان: ولا تانية ولا تالتة، اسأل مجرب ولا تسأل طبيب. تركه ميلاد وذهب إلى ركن بعيد في الغرفة وقد زاد أنينه وألمه حتى تقيأ عدة مرات.

وبعد أسبوعين وفي عيادة التأمين الصحي بأبي قرقاص وعلى باب غرفة الاستشاري كان التومرجي أبو أحمد ينادي ويكرر: ميلاد مينا جرجس، ميلاد مينا جرجس، ولم يجب ميلاد، لأنه لم يحضر، فقد توفاه الله بالأمس..

- 66 -

ذهب ومعه زوجته إلى الساحل للاحتفال بعيد زواجهما الفضي، وفضلت هي البقاء في الشاليه، فاختلى بنفسه بعض الوقت على الشاطئ، ومع نسمات أول اليوم، نظر للأفق البعيد، فأبهره لون البحر السماوي، وطيور النورس البيضاء تطوف في سمائها فوقه، مصدرة أصوات تعرب عن سعادتها ببدء يومها الجديد. ومع مرور الوقت استمتع بظل العريش يشمله ويغطيه ويحجب عنه شمس يوليو، واستمتع أيضا بتوالي موجات البحر الرشيقة وهي تتراقص لدى عناقها الرمال، وأمتعه ترشش رذاذ البحر المنعش على وجنتيه وعلى جبينه، وعندما انتقل لحظه من البعيد إلى القريب أثارته غيداء تتمايل أمامه جيئة وذهابا، وأسعدته ضحكات أطفال صغار يلهون بالرمال بجانبه.

كانت صورة جميلة غير ما اعتاد في روتين حياته وأحس وكأن ساحراً يقلب كيانه ويلهب أفكاره، واهتاجت نفسه للحب الذي جمعه هو وزوجته منذ زمان، ولم يعودا يحسانه حتى اعتقد أن ذلك الحب

قد مات. فقرر العودة سريعا للشاليه ليعرب لزوجته عن تجدد حبه اللاهب المحترق.

وعند لقائها وكانت بالمطبخ احتضنها من الخلف وقبلها بحنان ورقة على خدها وقال بصوت هامس: وحشتيني يا حبيبتي. فاستدارت وهي منزعجة وقالت: نعم يا أخويا؟ خد قشر التوم ده، الملوخية على النار والعيال جعانه..

- 67 -

عرَّفَ الأرنب الغض أصدقاءَه مدخلَ جحره الجديد، وأوصاهم أشد الوصية ألا يبوحوا بسره لأحد، وإلا عرف الثعلب مكانه وافترسه. وفي مساء ذلك اليوم كان صراخ صاحبنا الصغير يدوي في أرجاء الغابة، حيث كان الثعلب ينبش جحره ويتلذذ بازدراده.

وعلى تبة قريبه كان الأرنب العجوز يراقب ما يحدث ويردد في حسرة:

إذا المرء أفشى سرَه بلسانِه ولامَ عليه غيرَه فهو أحمقُ

إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِ نفسِه فصَدرُ الذي يُستودعُ أضيقُ [1]

من شعر الشافعي.

68

في عيادة بإحدى مستشفيات لندن بدأ المريض السبعيني شكواه من صداعه المزمن الذي لازمه لمدة تزيد عن الخمسة والعشرين عاما، وبدأ المريض في شرح تطور صداعه عاما بعد عام، فبدأ بحاله منذ خمسة وعشرين عاما ثم بحاله منذ أربعة وعشرين عاما وهكذا دواليك، ولكى لا ينسى تفاصيل ما عاناه فقد أخرج من جيبه ورقة مهترئة مدون بها تاريخ صداعه الطويل، وأخذ الدكتور محمود في الإنصات باهتمام أو تمثيل الاهتمام بالإنصات، وشيئا فشيئا قل تركيز الدكتور محمود لكثرة التفاصيل الغير مفيدة، وعندما وصل المريض للعام التاسع عشر، وعلى الرغم من استمرار الدكتور محمود في النظر إلى المريض، خطر على عقل الدكتور محمود هاجس يخاطبه ويقول: إيه الهم ده يا محمود. مش كفاية بقي. أنا لازم أبطل العبط ده وأطلع معاش قريب. واستطاع بعد برهة التخلص من هذا الهاجس فوجد المريض مستغرقا في شرح أحواله ولكنه كان مازال في العام الخامس عشر، فخلع الدكتور محمود نظارته الطبية ودنا من المريض ونظر إليه في عينيه وتظاهر بكثير من التركيز. وكان يهز رأسه مع كل معلومة تصل إليه وكأنه يستمع للسر الدفين الذي سيعينه

على التوصل للتشخيص الغامض، وكان يدون ما يسمع على تفاهته. وفي حقيقة الأمر كان فكر الدكتور محمود مشغول بسعاد.

فكان عقله يتساءل وهو مازال ينظر إلى مريضه: يا ترى يا سعاد هتسلقي الكرنب كويس؟ الرز في المحشي المرة اللي فاتت كان نيّ خالص. ومع إحضار الممرضة كارين قدح القهوة للدكتور محمود استعاد صاحبنا عقله ووجد مريضه قد وصل للعام التاسع فلم يكترث وعاد لمخاطبة عقله مرة أخرى، فقد شغله المحشي كثيرا، وقال: يا رب يا سعاد تسقي المحشي بمرقة الفراخ بدل الميه، طعمه بيبقى أحلى بكتير.

وبعد عشرين دقيقة كان استرسال المريض قد وصل للعام الخامس، عندها تخيل الدكتور محمود كيف سيكون حال ذلك المريض لو عالجه في مصر، وقال في نفسه متهكما وساخرا: في ثلاث دقائق كنت سأصرفك من العيادة يا صديقي العزيز. ولم يسعف طبيبنا من ذلك الملل إلا تدخل أخت المريض والتي كانت ترافقه، فقالت إنها وهي صغيرة كانت تضرب أخاها على وجهه كثيرا، وأنها تعتقد أن ذلك الضرب هو سبب صداع أخيها المستمر، وأيضا أظهر الدكتور محمود اهتمامه لهذا التعليل السفيه، ولكنه قرر وضع حد لهذا الهراء، ووجه الحديث لأشياء أخرى مفيدة وقام بالكشف على المريض وعمل اللازم له ثم صرفه هو وأخته. وعند انصرافهما من العيادة أبديا تقديرهما لمهنية الدكتور محمود ولاهتمامه بالتفاصيل وإنصاته لشكواهم. وفي نفس الوقت تلقى الدكتور محمود رسالة على هاتفه من سعاد تخبره أن المحشي جاهز..

- 69 -

كان المهندس نشأت يصور نفسه وكأنه الخبير بكل شيء والعليم ببواطن الأمور، وعندما تلوح مشكلة في مؤسسته يبادر بعرض حل لها وبطريقة غريبة ومثيرة، وليس من الضروري أن تكون طريقته هي المثلى، ولكنه يغلف حله بحسن الأسلوب ورشاقة الألفاظ والكلمات، مع كثير من تحريك ذراعيه ورأسه لإقناع مستمعيه وإسقاط نظارته قليلا فوق أنفه، ولا ينسى أن يصور نفسه وكأنه لديه الحل الأوحد وأن الأرض ستتوقف عن دورانها بدون حله. وفي الوقت نفسه كان المهندس نشأت يسفه رأي السائل ويوحي له بضعف عقله وتفكيره أذا ما حاول السائل عقد مقارنة بينه وبين ما يملك المهندس نشأت من كفاءات، وكان نشأت لا يدع مناسبةً أو استفسارا عن شيء إلا ويتحدث عن خبراتِه، فيأتي رأيه مُعَظِمًا لذاته ولتصرفه، وكان يتكلم وكأن أنفه قد سُدَ بقطعة من الفلين، ويتعمد تقطيع حروف كلماته لجذب الانتباه وإضفاء الأهمية. وانبهر به كثيرون. ولم يكن المهندس نشأت ليكتفيَ بمهارته فقط في مجال عمله لينجح، وهو ماهر فعلاً، فلجأ بعلاقاته الخاصة وبلباقة حديثه وبذكائه المتقد إلى التوسط

لرؤسائه للترقي على حساب أقرانه، وكان يبدي استعداده باستمرار لتقديم الخدمات حتى ولو كانت خارج نطاق العمل، ولكن للرؤساء فقط. وللأسف ذلك ما كان رؤساؤه يحبون. فنجح وترقى بسرعة.

ومع مرور الوقت أصبح المهندس نشأت رئيسا لأكبر شركات المقاولات، وعلى الرغم من شهرته وعظم ثروته فهو لم يكن سعيدا، فلم يكن يشعر بالراحة حتى في فيلته في نيس أو في شقته في كاليفورنيا، وتزوج عدة مرات ولكن همه لم يُفَرَّجْ وبؤسه لم يَذهب، بل كان يعاني من آلام كثيرة ومستمرة ببطنه ولم تستجب تلك الآلام لأدوية الطبيب. وكان يثيره عم درويش بابتسامته الدائمة وسِنِّه الضاحك، وكان عم درويش يبدو أمامه فاقدا للمشاكل، فطلبه في مكتبه واستوضحه عن سبب سعادته على فقره.

نشأت يقول وهو مكتئب: انت بتعمل شاي وقهوه ومبسوط. وأنا فلوسي مش عارف أوديها فين ومش مبسوط

درويش يقول: ادیني الأمان يا نشأت بيه وأنا أقولك ع الفوله.

نشأت رافعا يده ويقول: قول ما تخافش.

درويش يقول: أنا معاك يا نشأت بيه من أربعين سنه، وعارفك أكتر من نفسك، نيتك ما كانتش حلوة من الأول. ربنا فتحها عليك لأن ده رزقه، لكنه ما ادكش راحة البال.

طأطأ نشأت رأسه في خجل وقال: طب روح انت دلوقت يا عم درويش واعملي قهوة، ثم تناول قرصا مهدئاً..

- 70 -

في صالة التزلج بأبي ظبي رآها، وأمعن فيها النظر، وعرفها، فهو لم ينسها ليتذكرها، إنها جميلة. نعم كانا في عامهما الجامعي الأول، وكان ما يزال غضا ولا يملك ما يتطلبه الزواج، وهي لم تكترث حينها باهتمامه. سلك صالة التزلج من طرفها لطرفها ليدنو منها أكثر وأكثر، وفي طريقه تذكر أول مرة قابلها، كانت في حفلة الموسيقى العربية بكلية التجارة، وفي هذه الحفلة كانت جميلة تقف بجواره، وجذبت كل الأنظار، فقد كانت جميلة فعلاً، وكانت ترتدى رداء أحمر اللون، وكان وسطه ضيقا جدا فالتصق بخصرها الدقيق، فأظهر كِبَر ما فوق الخصر وأظهر كِبَر ما تحت الخصر، وكان صدر ردائها مكشوفا ولكن شعرها الأسود الناعم استرسل فستر ما كشف الرداء. ولم يكن ذلك الرداء بالقصير ولا بالطويل فأظهر ساقيها المستديرتين، وجعل خياله المراهق يتخيل ما أخفاه الرداء. ومع ازدياد قربه منها عبر الصالة أحست به، وعرفت بغريزة الأنثى أن ذلك الرجل مهتم بها، وأنه يحدق النظر فنظرت إليه، وشاهد عينيها فتذكر نفس نظرتها التي رُسِمَت في قلبه منذ عشرين عاما، فهي سبلاء وعيناها سوداوان ولا يمكنه

نسيانها، وكان شعرها مسدلا فوق كتفيها كما رآها أول مرة، ولم تتغير إلا من قليل من الدهن تجمع فوق جسدها وزاده التفافا وإثارة. وعندما وصل إليها في الناحية الأخرى من الصالة تذكر حبها الذي مازال عالقا بقلبه، على الرغم من عدم تطور علاقته بها، وعلى الرغم من زواجه.

وعند اقترابه منها بادرته متسائلة: أحمد رشدي؟

أجاب بسؤال، وقد لمح أصابعها بدون خاتم زواج: جميلة؟

فقالت: ماذا تفعل هنا؟

فقال وقد عقد العزم على ألا يتركها هذه المرة: أعمل في بنك أبي ظبي. ولم يتمالك مشاعره واقترب منها كثيرا وتمنى لو يحيطها بذراعيه ويحتضنها ويقبلها، ليعبر لها عما كَنَّه في قلبه لسنوات، وقرر أن يطلب منها ما عجز عن طلبه في الماضي، وتمادى في أحلامه حتى أنه كان على استعداد للتضحية بنادية زوجته.

ومرة أخرى وبغريزة الأنثى أدركت جميلة ما يحسه هذا الرجل، وانه قد زاد به اللَّهْفُ، فاستدارت ونادت فتاة يافعة تشبهها تماما: تعالي يا سامية سلمي على عمو أحمد، ويا ريت تندهي بابا علشان يسلم عليه هو كمان..

71

في صباح ذلك اليوم، وكما في كل صباح، يجهز عبد الباسط الحمام للطبيب المشهور، فيملأ المغطس بالماء الدافئ، ويضيف العطر ذو الرائحة الجميلة الأخاذة، ويجهز المناشف الناعمة، حتى يستمتع الطبيب المشهور بحمامه ويذهب للقصر العيني هادئ الأعصاب، فيتمكن من التركيز أثناء إجرائه جراحات الجهاز الهضمي الدقيقة التي اشتهر بها، فاليوم سيطبق الأستاذ الشهير تطويره الجديد لإحدى عمليات الجهاز الهضمي والتي قام بنشرها في أشهر المجلات الطبية الأمريكية، وسيجريها لسفيرة بريطانيا في إيطاليا. التي حضرت لمصر خصيصا بعد توصية من أشهر جراحي العالم بالعلاج لدى ذلك الجراح المصري المتمكن. وكان يصر على أجراء عمليات المشاهير بالقصر العيني إعلاءً لمكانة ذلك الصرح العظيم كما كان يصفه، وقد أتم تلك العملية بنجاح للسفيرة.

وبعد هذه الجراحة توجه إلى عنبر 11 لشرح الدرس العملي للطلبة، وقد امتلأ العنبر عن آخره بطلبة القصر العيني وآخرين حضروا من

كليات الطب الأخرى للاستفادة من علم الأستاذ الغزير، فهو له طريقة فريدة في الشرح تبسط المعلومة وتيسر فهمها على صعوبتها. ولم يسع العنبر كل الحاضرين فملأ الطلبة الممرات الجانبية واشرأبت أعناقهم داخل النوافذ المطلة على الطرقات ليتابعوا شرح الأستاذ. ولتقديره لطلبته كان يطبع محاضراته وشرحه في مجال تخصصه ويوزعها بالمجان على هؤلاء الطلبة.

وكانت للأستاذ صفات خاصة تميزه، فهو يطيل الشعر المتبقي برأسه من الخلف، كما كان يحيل شعر رأسه من جهة لأخرى ليداري صلع رأسه، وكانت له سلسة ذهبية تتدلى على صدره تحمل ساعة الجيب، وسلسلة أخرى تعلق نظارته الطبية عند تحريرها من فوق أنفه، وكان يضع منديلا مُشَعثاً في جيب سترته ووردة حمراء كبيرة في عروتها. وكانت هيئته تلك تبهر طلبته فضلا عن انبهارهم بسلاسة شرحه ومهنيته في التدريس، وكان يفضل الهدوء من الطلبة أثناء شرحه، حتى أنه عند سماعه بعض الهمس من أحد الطلبة لا يقوم بطرد ذلك الطالب وحده من العنبر ولكن الطرد كان يشمل كل الموجودين حوله، ولكن الطلبة بدورهم يستديرون ويلتحقون بالدرس من مكان آخر. وهم يقولون لشده حبهم له: مهما تعمل مش هنسيبك.

في مساء ذلك اليوم ظهر الأستاذ على شاشة التلفاز في برنامج مع المشاهير الذي يشاهده كل المصريين، فكان قمة في التواضع، وأبهر جميع المشاهدين بحديثه كما تعود إبهار طلبته بعلمه. واشتهر عنه

علاجه للفقراء دون مقابل، ولم تكن له عيادة خاصة فقد وهب نفسه للطب وللأبحاث العلمية ولخدمة أصدقائه المرضى كما كان يسميهم.
عاش ومات سعيدا بما يفعل، فكان دائم القول: سعادتي ليست في جمع المال ولكنها في بسمة أراها على وجه صديقي المريض، أو عند نقل علمي لعقول طلبة الطب، أو في اكتشاف جديد من خلال أبحاثي.
رحم الله الأستاذ..

_72_

تقول هيام بصوت ناعم وخافت، وهي تنظر إلى السماء وبعد تنهد طويل، وقد ضمت يديها إلى صدرها وأرخت جفني عينيها العلويين: يا ترى يا محمود بتفكر في اللي بفكر فيه؟

محمود بتلقائية: طبعا يا حبيبتى وَيَا ريت يحصل دلوقت.

هيام تبعد يدها عن صدرها وترفعها لأعلى، وتهوى بها على وجه محمود بعنف صارخة: يا مجرم يا قليل الأدب.

ـ 73 ـ

تعمل نرمين كباحثة في المركز القومي للبحوث وقد حصلت حديثا على الدكتوراه، ولذلك تأخر زواجها، وهي وأن كانت قصيرة ولا يتعدى طولها المتر والنصف، فقد كانت جميلة وبيضاء البشرة، أما عيناها فكانتا هدباوين وخضراوين، وشعرها ذهبي أصفر وطويل ولكنه مجعد مما أضفى عليه حسنا وإثارة خاصة عندما تزيد من شعثه فتبدو كقطة برية تجذب أنظار الباحثين عن الجمال، ولم يَعِبْ جمالها سوى ندبات انتشرت على خديها لم تكن ليلاحظها المنبهرون بجمالها، فكان يجذبهم دقة أنفها واكتناز شفتيها. ومع شدة جمالها عُرفت نرمين أيضا بأخلاقها الطيبة ورقة قلبها وحسن معاملتها للآخرين. رفضت نرمين كثيرا من زملائها ممن حاولوا الارتباط بها، فهي كانت ترغب السفر للخارج وزيارة بلدان العالم المختلفة، وزملاؤها بالمركز القومي للبحوث مكتوب عليهم البقاء حيثما هم بالقاهرة. وظل كل من يعرف نرمين يترقب ويحلل من يا ترى سيكون سعيد الحظ ويفوز بنرمين؟ وعندما تستشير أمها بشأن الزواج ترد قائلة: نصيبك هيصيبك.

وأخيرا تزوجت نرمين، وكان زواجها زواج صالونات وسبقته فترة تعارف وجيزة، وكان فارس في كل زيارة يقوم بالواجب ويحضر معه الورود والحلوى، فكان يهديها من وقت لآخر خاتما أو سوارا تفرح به وتبديه لصاحباتها وهو يتلألأ حول معصمها. ووافقت على مرافقة فارس للعيش في سويسرا حيث يعمل في السفارة هناك. ومنذ اليوم الأول لها في برن شاهدته يبتلع بعض الأقراص، وعندما استفسرت عن ذلك أخبرها بأنها مهدئات، فلم تهتم، حتى تفاجأت به وأثناء لقائهما الحميمي يعتصرها بذراعيه عصرا حتى كاد أن يهشم ضلوعها، فصرخت فيه وحاولت دفعه عنها ولكنه كان محاصرها تماما وبعنف فلم تستطع الإفلات، وعندما خارت قواها وغابت عن وعيها لشدة ألمها تركها. ولما أفاقت نرمين اعتذر لها فارس وطلب منها مساعدته على تجاوز محنته، فهَمَّت عيناها وصبتا دموعا غزيرة حسرة وندما على سوء بختها وقلة حظها، ولكنها آثرت تحمل مرض زوجها حتى يأتي العلاج بحسن النتائج، وصدى قول والدتها يُرَجِعُ في أذنيها: نصيبك هيصيبك.

ومرت سنوات طويلة وتحسن فارس، وزارت نرمين مع زوجها ما أرادت من بلاد، ونسيت نرمين مرضه، حتى تفاجأت به أثناء علاقتها الحميمة مرة أخرى وهو يتحول لمخلوق شرير ليحيط عنقها بكفيه ويضغط بقوة، وكان جاثما فوقها ويمنعها من الحركة، حاولت التخلص ولكن هيهات، فقد كان فارس كبير الحجم، وعندما نظرت

إليه وهي تحشرج وجدت إنسانا آخر غير الذي عاشرته وعرفته، أو بالأحرى لم تعرفه، فقد كان جاحظ العينين ومكشرا عن أسنانه، وكان لعابه يسيل من جانبي فمه وهو يضحك ويقهقه بصوت عال، ومع تعالي صراخها أقبل الجيران وطرقوا الباب فانقشع فارس عنها. وعادت نرمين لحزنها وبكائها، وعاد فارس لاستجداء عطفها وطلب مساعدتها، وعاد ترجيع صوت أم نرمين في أذنيها: نصيبك هيصيبك..

_74_

قضت لمياء الثلاث ليالي الماضية مفكره فيمن تختار كعريس، فقد تقدم لها عريسان في نفس الوقت، كل منهما يعمل في مكان مرموق.

الأول: طويل ووسيم، أبيض البشرة، وأخضر العينين، يشابه حسين فهمي وقت شبابه. ولكن البلاهة تكسو ملامحه، وما إن يتحدث حتى تتكشف ضحالة تفكيره. وقد عين في هذا المكان المرموق بتوصية كبيره.

الثاني: شعله من الذكاء، قارئ لكل الكتب، آراؤه دائما راجحة، وله أسلوب شيق في الإقناع. ولكنه قصير القامه وأجعد الشعر. وقد عين في هذا المكان المرموق بعد اجتيازه كافة الاختبارات بامتياز، وبدون توصيه.

الْيَوْمَ لمياء اختارت الأول.

- 75 -

بعد احتلال بنى طالع يقود اللواء نظير فرقته وينشر جنوده للبحث عن قائد المقاومة سالم، والجنود يكسرون أبواب المنازل بعنف ويحطمون محتوياتها، فهم محصنون بتعليمات اللواء نظير قائد الاحتلال. ولكن الجنود لا يجدون سالما ، فقط يجدون أم سالم المسنه وابنته آمنه، ويأخذون آمنه ويغتصبونها ثم يقتلونها بطلقه رصاص بين عينيها عندما قاومتهم. وأهالي بني طالع ينظرون في خوف ولا يجرؤون على الاعتراض، فالرعب يحاصرهم. وفي المساء يدور الحوار التالي بين اللواء نظير ونائبه العميد همام. اللواء نظير: أهلا يا همام، تفضل.

العميد همام يتساءل: البلد دى غريبه جدا يا افندم، كل الضرب ده والتعذيب والقتل ومش عارفين نعرف مكان الواد ابن الكلب ده فين.

اللواء نظير: استمر يا همام وما تخفش، وبعدين قوللى ليه ما خليتوش البت آمنه لغايه أما أشوفها.

العميد همام ضاحكا: ها ها ها يا افندم الجايات أكتر م الرايحات، الليلة تكون عندك أحلى بنت فى البلد.

اللواء نظير يقول في هدوء: لا أنا عاوز مجاهد أخو سالم هو اللى هيقول على أخوه.

العميد همام: تمام يا افندم أنا بنفسى هاروح تاج المحله دلوقت واجيبو لسيادتك، بس امبارح لاحظت حاجه غريبه قوى في البلد دي.

اللواء نظير: إيه يا همام؟

العميد همام: لاحظت يا افندم إن كل بيت فى بنى طالع حاطط ثمره قرع صغيره جنب الباب.

اللواء نظير: والنبى يا سيادة العميد أنا مش فايق للكلام ده، الإرهابيين والواد سالم طلعوا دين أبونا بالتفجيرات بتاعتهم وإنت بتقوللى قرع، أنا متأكد إن مجاهد بعد التعذيب هيعترف على أخوه. ثم يصرخ ويقول: هتولي مجاهد.

العميد همام وهو يؤدي التحية العسكرية بكل عنف ويقول: تمام يا افندم. ويعمل للخلف در وينصرف.

ومع شروق شمس اليوم التالي كان مجاهد ملقى على الأرض تحت قدمي سيادة اللواء، خائر القوى وفاقد الوعي، فقد تم تعذيبه لثلاث ساعات، ومع ذلك فمجاهد لم يعترف لأنه لا يعرف. وعندما ينتهي اللواء نظير من آخر رشفة من كأس الويسكي التى بيده، يأمر جنوده بربط إحدى قدمي مجاهد فى شجرة والأخرى فى مؤخرة سيارته الجيب، وبِغِلٍ شديد يَخْبَطُ المنضدة التي أمامه ويتناول كأسا آخر من الويسكي، ثم يلقى الكأس بقوة على الأرض، أمام أهل القرية، وكانوا جميعهم

شهودا، فزاد المرعوبين رعبا. وجلس على مقعد القيادة وانطلق بأقصى سرعه بالسيارة، فتطايرت أشلاء مجاهد، وغطى الدم المكان. ثم ينطلق سيادة اللواء بسيارته فى اتجاه معسكره المؤقت خارج بنى طالع، ومع كل ارتطام لراس مجاهد بالطريق تسمع صوت اصطكاك أسنان بنى طالع كلهم، بل إنك لتسمع انفطار قلوبهم فى صدورهم لشدة هلعهم، ولم يقطع هذا الصمت الرهيب وذلك المشهد المرعب سوى صوت انفجار هائل، إنه أحد تفجيرات الإرهابيين، ولكنه لم يطل اللواء نظير بسوء.

واشتاط اللواء نظير غضبا لكثرة التفجيرات ولعجزه عن الإمساك بسالم وبرجاله الإرهابيين، وأمر جنوده بتدمير بنى طالع تماما، وإحراق كل ما فوق الأرض، وأمهل اللواء نظير بنى طالع عشر دقائق فقط للإبلاغ عن مكان سالم وإلا فسيكون الموت مصيرهم، وبالفعل قتل الجنود كل اهالى بنى طالع رجالا ونساء وأطفالا، و قرر اللواء نظير إنشاء معسكر له ولجنوده على أرض بنى طالع، وإطلاق اسمه على البلدة وعلى المعسكر، وفى صباح أول يوم له هو وجنوده فى معسكر اللواء نظير لم يقم أحد منهم من مرقده، لقد هاجمتهم أسراب النمل السام الذى يعيش تحت أرض بنى طالع، ولا يمنعها من دخول المبانى إلا ثمره القرع..

76

تستعد دميانه تادرس لأداء امتحان بكالوريوس طب القاهرة، وتحادثها ماريان زميلتها وجارتها بدوران شبرا، وذلك وهما تهمان بركوب الميكروباص فى طريقهما لحضور المراجعة النهائية للأستاذ الدكتور أحمد شفيق، عملاق الجراحة ومثل دميانه الأعلى: إنسي يا بنتي، معقوله هيخلوا دميانه تطلع الأولى على ولادهم؟

قالت دميانه وهي تنظر للكورنيش وتسوي شعرها الخشن: وفيها إيه يعنى، م أنا الأولى كل سنة.

قالت ماريان: يا حبيبتي اللى فات كله كوم والبكالوريوس كوم تأنى.

قالت دميانه فى ثقة: العدرا معايا.

تساءلت ماريان وهي تفض غلاف قطعة من الحلوى وتلتهمها: طب سمعتى العيال بينكتوا عليكى امبارح ويقولوا إيه؟

تساءلت دميانه وهي تهز رأسها وكتفيها: إيه؟

قالت ماريان فى صوت خافت وهي تمضغ الحلوى: بيقولوا إنك دخلتي لمحمود شاكر فى الشفوي، سألك اسمك إيه، قولتي دميانه

جرجس تادرس، قالك بس بس بس ده دميانه لوحدها تسقطك وطردك م اللجنة.

ضحكتا بصوت عال ونظر جميع ركاب الميكروباص نحوهما وكان بعضهم يقول: متضحكونا معاكوا.

محمود شاكر هو أستاذ الباطنة، وهو ملتح.

اليوم هو اليوم الأخير في امتحان الشفوي بقصر العيني، وكل شيء يسير على ما يرام، فقد أبدعت دميانه كعادتها فى كل اللجان ولم تتبق لها إلا لجنه الباطنة. وحدثت المفاجأة التى لم تتوقعها دميانه، فالأستاذ الدكتور محمود شاكر يتصدر اللجنة. وتماسكت دميانه أعصابها وغمغمت ببعض الصلوات مع حركه سريعة على صدرها بشارة الصليب. ودعاها الدكتور محمود شاكر للجلوس وسألها عن اسمها، ولم يتفاعل لنطقها اسمها، فابتسمت ابتسامه بسيطة مع تذكرها لنكته ماريان، ولم يدرك الدكتور محمود شاكر مغزى ابتسامتها وبدأ الامتحان. كالمعتاد كانت إجابات دميانه كاملة وحصلت على الدرجات النهائية، وكالمعتاد كانت دميانه الأولى..

- 77 -

فرح الحاج حسين بابنه ياسر لدى عودتهم من الإسكندرية، فتركه يقود السيارة بنفسه، وياسر قد بلغ العشرين من عمره. وكذلك كان يسعد الحاج حسين اشتراك ياسر باقتراحاته لحل بعض المشكلات الأسرية، وكان الحاج حسين يرى أن الشباب لديهم رؤى جديدة، وآراء من خارج الصندوق. ولكن الحاج حسين كان يتألم لسلوك ياسر تجاهه، فياسر كان عنيفا في حديثه مع والده، ولم يكن ليبدي الاحترام الذي يتوقعه الأب. ولم يحسن ياسر اختيار الألفاظ التي يخاطب بها والده، بل كان يتهكم كثيرا على آراء والده وتصريفه لأموره، ولا يبدي اكتراثا لوجود غرباء، أو ما يسببه من إحراج لوالده بما يصدر منه بشأن أبيه أمامهم، وتعجب الحاج حسين ذلك السلوك أشد العجب، وخاصة وأنه لم ينشئ ابنه على ذلك، بل كان دائما يوجهه ويرشده.

كظم الحاج حسين حزنه وانكساره وتذكر كيف كان يعامل والده وكانت نفسه تردد: كما تدين تدان..

-78-

اليوم هو أول أيام الاختبارات الشفوية، وعادة ما تستخدم ليلى كل أسلحتها الأنثوية أثناء هذه الاختبارات، فتفيدها بشده، وتعوضها عن ضعف مستواها العلمي. ارتدت تايرا أسود اللون فاظهر بياض بشرتها، وتعمدت فتح الزرارين العلويين لقميصها الشفاف، فأظهرت فتحة القميص أكثر مما أخفت.

كان ممتحنها فى اليوم الأول هو الأستاذ الدكتور سامح الأسيوطي، أستاذ الباطنة المساعد، وكان صغير السن وغير متزوج، تلعثم عندما رآها. وزاغ بصره هنا وهناك، ومع تفحصه الشديد لها ازدادت حيرته.

هل ينظر إلى عينيها وهي تجيبه أثناء الامتحان؟ لشدة جمالها لا يستطيع.

هل ينظر إلى شفتيها وهي تتحدث؟ لشدة جمالها لا يستطيع.

هل ينظر إلى الزرارين المفتوحين وما يظهران؟ لشدة جمال ما يرى استطاع.

هل ينظر إلى ساقيها المكشوفتين عن قصد أسفل التنورة القصيرة؟ لشدة جمال ما يرى استطاع.

بحاستها الأنثوية تدرك ليلى أن خطتها تسير في طريقها المرسوم، وأن ما تقوله كإجابة لن يقدم ولن يؤخر، فقط ما تظهره هو المؤثر، فأطلقت زرا آخرا من عروته، فأظهر استدارة ثدييها الجميلين، وتعمدت تحريك ساقيها أثناء ردها أسئلة الأستاذ، وعندما شاهدته يدقق النظر لأسفل تيقنت نجاح خطتها.

لم يدر الدكتور المأخوذ بكل حواسه ماذا سأل وبم أجابت ليلى، فمنحها الدرجة النهائية..

ـ 79 ـ

على الرغم من تعدد أعمال ووظائف المتقدمين لخطبة نور، فقد استمرت نور في صدها، وكانت أسباب رفضها كثيرة ومختلفة كما اعتادت، حتى زميلها الدكتور محمد زين، كان حظه الرفض وانضمامه إلى قائمة المرفوضين، تعللت بأنه بيئة.

جاء تكليف الدكتورة نور بمكتب صحة أم المصريين، وكان مديره الدكتور عبد الله مسعود، وهو شخص عصامى، وميسور الحال. ويتمتع بخفة ظل متناهيه، حصل على الماجستير، وكان فى المراحل النهائية من الدكتوراه. تقرب من الدكتورة نور وتقدم لخطبتها، وكان حظه الرفض وانضمامه إلى قائمة المرفوضين، تعللت بانه لا يرتدى ماركات.

سافرت نور لإنجلترا في بعثة قصيرة، للتدريب على تركيب أنواع جديده للوالب منع الحمل، وتعرفت على الدكتور مصلح استشاري أمراض النساء في لندن، فنشأت بينهما علاقة حب سريعة، ومع نهاية فترة تدريبها تقدم الدكتور مصلح لخطبتها على أن تقيم معه بإنجلترا، وكان حظه الرفض وانضمامه إلى قائمة المرفوضين، تعللت بانها لا تتخيل أنها

من الممكن أن تعيش بعيدا عن ماما وبابا.

أصبحت نور فى السنة الخامس والثلاثين من عمرها، ولكنها نظرا لرشاقتها وجمالها فهى ما زالت تبدو وكأنها فى العشرين. وتقدم لخطبتها مهندس غنى يعمل مع والدها، وكان حظه الرفض وانضمامه إلى قائمة المرفوضين، تعللت بأن عمره تخطى الأربعين.

وكانت نور تتسمع لقصص الفتيات اللائي لم يتزوجن مع بلوغهن نفس سنها، فلا تأبه ولا تكترث. ولكنها ذات مساء، وفي أثناء تحديقها في مرآتها، لمحت بعض التجاعيد حول عينيها وعلى جانبى فمها، فاهتزت قليلا، ولكنها تمالكت نفسها، وضبطت أعصابها. فأدارت رأسها يمينا ويسارا وهي مازالت تنظر إلى مرآتها، تم قربتها إلى وجهها، وأمعنت النظر تارة أخرى. تجهم وجهها وعبست عبوسا شديدا وألقت بالمرآة بعيدا مع بعض الخنين، ثم ما لبثت أن انخرطت فى نحيب شديد.

لاحظت نور أن عدد الخطاب قد تناقص بصورة تثير الخوف خلال العامين الأخيرين، حتى أنه قد مرت ستة أشهر كامله دون أن يتقدم عريس. بل إن نوعيه الخطاب قد تدهورت، فالأستاذ سليم مشاقي، وكان صديقا للعائلة ومتقدما في السن، ومتزوجا، قد تقدم لخطبتها، فكان أحدث العرسان وآخرهم..

- 80 -

ماريان تعيش في فنلندا، وفي زيارة قصيرة لمصر سحبت منها رخصة قيادتها لمخالفة السرعة المحددة، واستطاعت استعادتها بدون دفع أية غرامة، ولم يذهب لخزينة الدولة المصرية جنيه واحد. فقد تطوع مجدي أمين الشرطة وقريبها بذلك. ولدى عودتها إلى هلسنكي وجدت مخالفة سرعة متراكمة ومتضاعفة على سيارتها، واضطرت لدفع ثلاثمائة يورو، ذهبت كلها لخزينة الدولة الفنلندية.

كما لاحظت ماريان أن ضباط وجنود المرور منتشرون في كل شوارع القاهرة، وعلى الرغم من ذلك فالمرور حاله لا يخفى على أحد. أما في فنلندا فنادرا ما ترى شرطيا، والأوضاع هناك لا تخفى على أحد أيضا.

ترددت ماريان واحتار عقلها أتقول عمار يا مصر أم عمار يا فنلندا؟.